هذا الكتاب

هو « طبخة » فنية على حد تعبير مؤلفه الفنان الماهر الاستاذ توفيق الحكيم بك . فقد أعدها فى مطبخ فنى ، واستحضر عناصرها وموادها من حوانيت أربعة مشاهير ، هم : الجاحظ ، وابن عبد ربه ، والخطيب البغدادى ، وبديع الزمان . فقد بهره وأسال لعابه ما وجده عندهم من لذائذ أشعب ونوادره الطريفة ، فوضع له هذه القصة من هذه الألوان التى ان كانت لا تشبع معدة أشعب ، فهى تشبع نفوس الأدباء

لقد كان أشعب أمير الطفيليين بلا منازع . وكان يرصد الموائد والطعوم كما يرصد الفلكيون الكواكب والنجوم . وكان أخف الطفيليين ظلا ، والطفهم فكاهة ، وأظرفهم نادرة . وكانت حياته صورة للمجتمع العربى الفكه اللطيف ، وتكاد معدته يكون لها شخصية ممتازة تستحق أن تؤرخ

واذا كانت الفاكهة ضرورية بين ألوان الطعام ، فان الفكاهة لون لا يستغنى عنه بين ألوان العلم والتاريخ والادب . وقد أصدرنا فى سلسلة كتاب الهلال ألوانا من التراجم العلمية والسياسية والادبية لشخصيات من عظماء التاريخ ، فلنقدم لهم هذا اللون الفكاهى الجديد عن أشهر رجل كانت حياته مقترنة بأطايب الطعام ، لا بمعارك المدفع والحسام

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان :	السيد خليل طعمه ـ السور ـ العسيلى ـ المدخل الشمالى ص ٠ ب ٥٤٣ بيروت
حلب :	الشيخ طاهر النعسانى
حماه :	السيد سعيد نجار
اللاذقية :	السيد نخله سكاف
حمص :	السيد عبد السلام السباعى ـ ص٠ب٤٩
مكة المكرمة :	السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب٩٧
البحرين والخليج الفارسى :	السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين
البرازيل :	Snr. Jorge Suleiman Yazigi. Rua Varnhagem 30. Caixa Postal 3766. Sao Paulo, Brasil
ساحل الذهب :	The Queensway Stores. P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجريا :	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
انجلترا :	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

....

العدد ١٢ ـ ابريل ١٩٥٢ ـ رجب ١٣٧١

No. 12 — April 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٧٩٨١٠ (تسعة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية او لبنانية ـ الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

أشعب

أمير الطفيليين

تأليف

توفيق الحكيم بك

دار الهلال بمصر

مقدمة

الأدب العربى القديم من أعرق الآداب وأبرعها فى رسم الاشخاص وتصوير الطبائع . وما من عجب فى ذلك ، فهذا الأدب وليد حضارة ذكية خلاقة . انما العجب هو أن يبقى أكثر آثاره وكنوزه بعيدا عن متناول العالم الغربى الذى رشف من نبع الاغريق والرومان .. أغلب الظن أن علة ذلك ترجع الى اختلاف النظرة الى الجمال الفنى عند العرب والغرب . فالعرب يرون الفن الأعلى فى الايجاز ، أى التركيز ، فى حين أن الغرب يرى الفن الأغنى فى الاطناب أى التحليل .. وكان من أثر الايجاز أن اكتفى العرب فى رسم شخصية أو تصوير طبع بنادرة تروى أو حادثة تذكر أو بيت من الشعر ينظم ، فيجدون فى ذلك متعتهم وبغيتهم .. بينما الغرب لا يكتفى باللمحة الخاطفة ولا تشبعه النادرة العابرة ، فهو يريد اللوحة الكاملة ذات الحوادث المتصلة .. والنظرتان الى الفن صحيحتان . فللايجاز جماله وقوته .. وهو يفترض فى المتذوق له ذكاء وفطنة وتصورا

وعلما ، فيبصر الكثير من خلال القليل ، ويلمح الصورة التامة من وراء الجزء المقتضب .. فن يبدعه منشىء بارع لقارىء بارع .. يتباريان فى ميدانه ، منتضين أسلحة متكافئة من الذوق والفهم ..

كما أن للتحليل أيضـــا مزاياه .. فهو يفترض فى المتذوق له خلو الذهن أو قصور الخيـــال .. فيرى من واجبه أن يعاونه ويكون فى خدمته،وأن يحتال بالاسهاب والتفصيل ليعلم من لا يعلم .. فيجتذب من الناس عديدا ينشر فيهم دعوته ويبلغهم رسالته ..

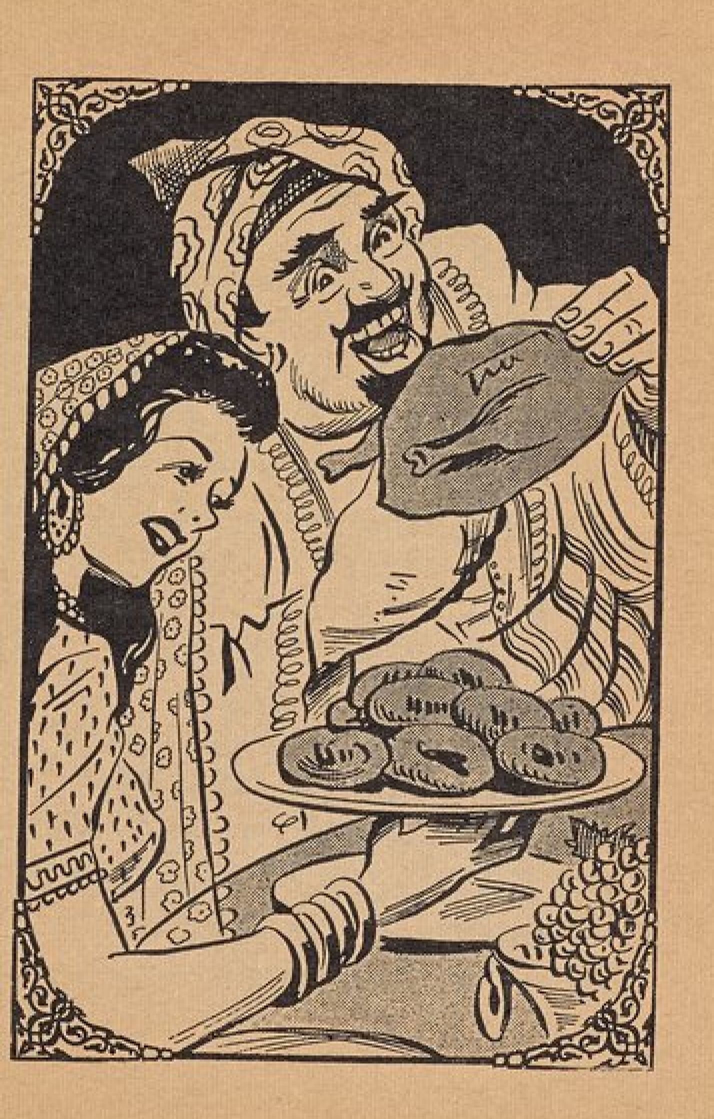
لو استطعنا أن نوفق بين النظريتين ، ونجمع بين الفنين .. لكانت النتيجة أتم والفائدة أعم ..

وهذا ما أخذت به نفسى حين وضعت هذا الكتاب فى عام ١٩٣٨ فى ذلك الاطار الذى يظهرنا على صورة من المجتمع العربى فى ذلك العصر ، نكاد نلمس لها وشائج قربى بما نراه اليــوم فى بعض أحيــاء مدننا وعادات مجتمعنا .. فالمالك والمســتأجر وما بينهما من علاقة ، والمنــازل ومرافقها ، والســوق وحركتها ، والولائم ومراسمها ، والحمام وزبائنه ، والحلاق وطباعه .. كل تلك الصور عن الحيــاة الاجتماعية كما بدت من الأدب العـــربى القديم ، قد راقتنى فيما راقنى من طبـــائع

وأشـــخاص رأيت أن أبرزها الى جانب شـــــخصية « أشـعب » .. ذلك الراصـــد للموائد والطعوم كما يرصد الفلكى الكواكب والنجوم..وأشهد أنى ما رأيت قط فى أدب من الآداب صورة لطفيلى أدق من صورته ..فتتبعت آثاره وتنسمت أخباره ، وطفقت أجمع نوادره من كتب الأقدمين .. وأمزجها وأخلطها وأطبخها .. على حد تعبيرى فى بيان الطبعة الاولى .. اذ قلت يومئذ: « ما دمنا فى صدد «المعدة» ـ أعنى معدة أشعب ـ فلأبين للناس كيف طبخت لهم هذا اللون من ألوان الأدب .

لقد استحضرت اللحم والبقل والتوابل والأبازير من حوانيت أربعة مشاهير : « الجاحظ » و « ابن عبد ربه » و « الخطيب البغدادى » و « بديع الزمان » . فقد بهرنى حقا وأسال لعابى ما وجدته لديهم من اللذائذ والطرائف. غير أنى وجدت كل هذا مبعثرا ضمن بضاعتهم ، وملقى على غير نظام ، حتى وقع الملح على السكر . كما وجدت أكثر هذه الاشياء شائعة مكررة بنصها وتفصيلها عنـــد الأربعة ، كل يضعها من حانوته نفس الوضع،ويعرضها عين العـــرض . فملأت يدى مما تخيرت من أطايبها وذهبت به الى « مطبخ » فنى ، حيث مزجته وخلطتـــه وجعلت منه « عجينة » واحدة ، صنعت منها هذه القصة المتصلة الفصول ... »

ت ١٠



أشعب وجاريته رشأ

انتصف النهار ، وصاح مؤذن الظهر ، لا من مسجد ذلك الحى من أحياء «المدينة» ، لكن من بطن « أشعب » : أشهر الطفيليين فى عصره ، وأظرفهم حديثا ، وأقبحهم وجها ، وأزراهم هيئة ، وأجملهم صوتا وأحذقهم فى فنون الغناء

وكان جالسا الى معشوقته « رشأ » من أول النهار ، يحادثها ويضاحكها ويطارحها الغناء منشدا :

دموع عينى لها انبساط ونوم عينى به انقباض

وكانت الحسناء متكئة على فراش من ديباج أخضر ، فى دارها الصغيرة ، أمام بستان قد أزهر بنبت الربيع . فأجابته مترنمة ، والسحر والفتنة يكادان ينطقان فى عينيها :

هذا قليل لمن دهته بلحظها الأعين المراض

فتنهد العاشق ورفع عقيرته :

فهـــل لمولاتى عطف قلب   أو للذى فى الحشا انقراض؟

فأجابته الجميلة فى ابتسامها الفاتن ، ولفظها العـذب وصوتها الرخيم :

ان كنت تبغى الوداد منا   فالود فى ديننـــا قراض

فتنهد أشعب هذه المرة تنهدا طويلا ، وأرسل بصره الى النـافذة ، ورأى ميل الشمس ، فتململ والتفت يمنة ويسرة ثم قال للحسناء صاحبة الدار :

ـ مالى لا أسمع للطعام ذكرا !؟

فتغير وجه الجميلة وقالت :

ـ سبحان الله ! أما تستحى يا شـيخ ؟ أما فى وجهى من الحسن ما يشغلك عن هذا ؟!

فسكت أشعب كالخجل . ثم جعـــل ينظر الى وجهها وعينيها متمسكا بأهداب الصبر والقناعة

فقالت له :

ـ امض فى غنائك ، فانك حسن الغناء . أســـمعنى صوتا لم أسمعه من قبل . ما هو أحسن الغناء عندك ؟

فأجاب أشعب بغير تردد :

ـ هو نشيش المقلى !

فقالت له فى شىء من الامتعاض والتأنيب :

ـ أهذا كلام يقال فى مثل هذا الموقف الذى نحن فيه؟

ـ صدقت . لقد كان يجمل بى أن أتحدث عن الحب الذى فى الحشا !

وأمسك بالعود مرة أخرى . فأسرعت الجارية تقول :

ـ نعم ، صف لى ما فى الحشا من الحب

فنظر اليها العاشق مليا :

ـ وماذا كنت أصنع اذن منذ الصباح ؟

ـ زد فى الوصف

ـ وصف ماذا ؟

ـ ما فى الحشا من الهوى

ـ من « الهوا » .. هذا والله صحيح

ورفع العاشق عقيرته بالغناء :

اذا كان فى بطنى طعـــام ذكرتهـــا
وان جعت يوما لم تكن لى عـــلى ذكر

ويزداد حبى ان شـــبعت تجـــددا
وان جعت غابت عن فؤادى وعن فكرى

ولم تر الجارية مع صاحبها هــذا حيلة ، فقامت تهيىء له الطعام.ولم تمض ساعة حتى فاز أشعب ببغيته الحقيقية ووضـــع أمامه الخوان . وكان هذا العاشق الولهان اذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وســكر وسدر وانبهر ، وتربد وجهه ، ولم يســمع ولم يبصر . فتناول القصعة وهى كجمجمة الثور فأخــذ بحضنها ، وما زال ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا ، لا يفصـــل تمرة قط عن تمرة ولا يرمى بنواة قط ولا ينزع قمعا ولا ينفى عنــه قشرا ولا يفتشه مخافة الســـوس والدود . فلما رأت صاحبته ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، لم تزد على أن همست كالمخاطبة لنفسها :

ـ هذا والله هو العشق !

ثم نظرت اليـــه ، وقد انتقل الى ألوان أخــرى من الطعام جعل يخاطبها قبل أن يمد اليها يده :

ـ بارك الله فيك من « فالوذج » صـــاف يقرأ نقش الدرهم من تحتك ! بارك الله فيك من ثريدة ملساء كأنها خد الحبيب ! بارك الله فيك من خبز رقاق كأنهـــا آذان الفيلة !

وهجم بيديه كأنه طالب ثأر ، فابتدرته الجارية قائلة :

ـ أتحبنى ؟

فلم يجب ، ولم يلتفت اليها ، ولم يبد عليه أنه سمع منها شيئا . ومضى فى التهامه ومضغه . فتوسلت اليه أن يتكلم فصاح متبرما :

ـ أما سمعت قول من قال : « اذا كنت على مائدة فلا تكلمن فى حال أكلك ، وان كلمك من لابد من جوابه فلا تجبه الا بقول نعم ، فان الكلام يشغل عن الأكل ، وقول « نعم » مضغة

فضحكت القينة . ثم قالت :

ـ ولكنك لم تجبنى حتى بقول « نعم »

فنظر اليها وفمه ممتلىء نظرة من يسألها عما قالت ، فقد نسى ، فأجابت :

ـ سألتك « أتحبنى » ؟

فلم يلفظ حرفا ، وأين له الفم الذى يلفظ شيئا ؟

فسكتت الجارية لحظة،ثم رأت أن تحتال عليه وتحرجه فقالت :

ـ أتحب أبا بكر الصديق ؟

فبلع لقمة وشرب جرعة من ماء ، ونظر اليها نظرة المعتذر المشغول عن الجواب ، غير أنها مضت فى تضييق الخناق عليه :

ـ أتحب عمر بن الخطاب ؟

وصادفت العاشق فترة فراغ بين لقمة ولقمة ،فأجابها على عجل ويده مسرعة الى الخوان :

ـ ما ترك الطعام فى قلبى حبا لأحد !

☐

قام أشعب عن الخوان الذى كان ، وهو يتجشأ ويقول لصاحبته :

ـ جعلت فداك ما أكرمك ! اذا كان غدا فاصنعى لى هريسة ، فأنت أحذق بها

فقالت له باسمة :

ـ انك لشديد النسيان . أما تذكر أنك من أيام قد تشهيت على « هريسة » فبعثت بها اليك ؟

فصاح العاشق طربا :

ـ نعم . فانى أشتهى عليك اذن « لوزينج » رق قشره

واشتدت عذوبته ، غريقا فى سكر ودهن لوز . . . يشد فؤاد الحزين ويرد نفس الشـــجين ، ابعثى لى به غـدا أصلحك الله ، مع شىء من النبيذ وما يصلحه

فقالت :

ـ أنسيت أنى بعثت اليك منذ ليال هـــذا اللوزينج وهذا النبيذ

فقال :

ـ اذن فانى أشتهى ، حفظك الله وأبقاك ، ثريدة دكناء من الفلفل ، رقطاء من الحمص ، ذات جناحين من اللحم فأضرب فيها كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم

فقالت كالمخاطبة لنفسها ، ساخرة :

ـ أبقاك الله وحفظك ، رأينا الحب يكون فى القلب ، وحبك ليس يجاوز المعدة !

ـ لم أسمع منك ! ماذا قلت ؟

ـ لا شىء ! أخبرنى أنت • أين دارك ولماذا لم تدعنى يوما الى طعامك ؟

فنظر اليها أشعب نظرة الجزع والذعر :

ـ دارى ؟ أما علمت أنى أسكن عند الكندى !

ـ ومن الكندى ؟

ـ هو أبخل أهل الأرض طرا ، وهل يستطيع ساكن أو جار أن يصنع طعاما دون أن يبعث الى صاحب الدار بطبق . انه لا يزال يقول للساكن وربما للجار : « ان فى الدار امرأة حبلى ، وان الوحمى ربما أسقطت من ريح القدور الطيبة،فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة . فان لم تفعلوا ذلك بعد اعلامى اياكم فكفارتكم أن أسقطت غرة عبد أو أمة » ، فكان بذلك ربما يوافى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام.فيأكل هو وعياله ويقول لهم : « أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع.فلكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان»، فهل تريدين أصلحك الله ، أن أدعوك الى دار مثل هذا الرجل ؟

فضحكت وقالت :

ـ أفقير هو ؟

ـ انه أغنى أهل المدينة !

فصمتت الجارية لحظة ، ثم نظرت الى أشعب مليا وقالت :

ـ ولكنى أريد أن أموت وآكل من طعامك !

فتفكر العاشق قليلا ثم أجاب :

ـ مهلا سيدتى . سأدعوك ان شاء الله الى طعام وشراب وغناء . .

ـ متى ؟

ـ يوم يحين وقت ذلك

ثم أسرع فاستوى قائما ومد اليها يده مودعا ، فمدت اليه يدا صغيرة كأنها حلية من عاج ، فلمح فى اصبعها خاتما ، فاستبقى يدها فى يده وقال فى صوت يسيل رقة ولطفا :

ـ سيدتى جعلت فداك ! ناولينى هذا الخاتم الذى فى اصبعك لأذكرك به

فسحبت يدها فى رفق وتضاحكت فى خبث وقالت :

ـ انه ذهب وأخاف أن تذهب

ثم أسرعت فالتقطت من الأرض عودا يابسا سقط عن شجرة قرب النافذة وأعطته اياه قائلة :

ـ ولكن خذ هذا العود لعلك تعود !

أشعب والكندى البخيل

جاء العصر وأشعب يتسكع فى الاسواق الى أن انتهى به المطاف أمام بستان من بساتين الكندى. فوقف وأرسل بصره ، فوجد صاحبه جالسا تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلا فيه لحم سكباج بارد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أربع بيضات . فاقترب منه ومر به مسلما عليه . فرد الكندى السلام قائلا :

ـ هلم عافاك الله

واذا أشعب أسرع من خطف البرق فى صحن السماء قد انثنى راجعا يريد أن يعدى جدول الماء. فصاح به الكندى وهو يأكل :

ـ مكانك ، فان العجلة من عمل الشيطان

فوقف أشعب مأخوذا ... فسأله الكندى :

ـ تريد ماذا ؟

فأجاب أشعب :

ـ أتريد أن أتغدى

فحملق فيه الكندى :

ـ ولم ذلك ؟ وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟

فقال أشعب :

ـ أو لست قد دعوتنى ؟

فأجاب الكندى :

ـ ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام . ماذا كان بيننا غير سلام ورد سلام ، أى كلام بكلام ، ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال . وقول بأكل، فهذا ليس من الانصاف

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه . وجعل أشعب ينظر اليه لحظة ثم قال له :

ـ لقد رأيتك تأكل وحدك

فبلع الكندى ريقه ثم قال :

ـ ليس على فى هذا الموضع مسألة . انما المسألة على

من أكل مع الجماعة، لأن ذلك هو التكلف. وأكلي وحدي هو الأصل . وأكلي مع غيري زيادة في الأصل . واذا كانت الوحدة خيرا من جليس السوء . فان جليس السوء خير من أكيل السوء . لان كل أكيل جليس . وليس كل جليس أكيلا !

فقال أشعب متخابثا :

ـ انما أردت أن أؤاكلك لأسخيك وأنفي عنك اسم البخل

فأجاب الكندي وهو يلقي في حلقه زيتونة :

ـ لا أعدمني الله هذا الاسم . فانه لا يقال فلان بخيل الا وهو ذو مال ، فسلم الى المال وادعني بأي اسم شئت.

فقال أشعب :

ـ ولا يقال أيضا فلان سخي الا وهو ذو مال . فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ، أما اسم البخل فقد جمع المال والذم . فأنت قد اخترت أخسهما وأوضعهما

فقال الكندي :

ـ بينهما فرق

فقال أشعب :

ـ ما هو ؟

فأجاب الكندى :

ـ فى قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال فى ملكه . وفى قولهم سخى اخبار عن خروج المال من ملكه . فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه حفظا ، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعا . والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة ، أما الحمد فهو ريح وسخرية والاستماع له ضعف !وماذا ينفع الحمد اذا جاع البطن وعرى الجلد وضاع العيال وشمت الحساد ؟!

وظل يأكل ، وأشعب ينظر اليه ، حانقا فى دخيلة نفسه على هذا اللؤم ، الذى لا تنفع فيه حيلة . غير أنه تلطف له ودنا منه قائلا :

ـ وما عليك لو جلست اليه ساعة أغنيك حتى تطرب وأضحكك حتى يزول عنك هذا القطوب

فصاح الكندى :

ـ لا أريد أن أطرب الساعة ولا أن أضحك

ـ وما يمنعك من ذلك ؟

ـ يمنعنى منه أن الانسان أقرب ما يكون من البـذل والعطاء اذا طرب وضحك

فأسقط فى يد أشعب ولم يدر من أى مدخل يدخل الى هذا الرجل ، وهو كلما فتح له بابا أغلقه . ولم يقنط أشعب مع ذلك . وخطر له خاطر أعجبه . فأسرع يقول لصاحبه :

ـ لقد ظفـرت لك بساكن جديد ، رضى أن ينزل دارك الخالية وقبـل دفع الأجر وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط ...

فأبرقت أسرة الرجل ووضع اللقمة من يده وقال :

ـ وأين هو عافاك الله ؟

ـ اذا رأيت أن أدعوه ..

ـ متى ؟

ـ الليلة الى عشائك

ـ عشائى !

وعاد الى قطوبه ، فأراد أشعب أن يهون عليه الخطب فقال له :

ـ لا تتكلف شيئا لهذا الضيف ، انه يرضى بما حضر

فأسرع الكندى يقول :

ـ ليس يحضر شيء ، وقولك « بما حضر » معناه أنه لابد من أن يقع على شيء

فقال أشعب :

ـ قطعة مالح ...

ـ وقطعة مالح أليست هى شيئا ؟

ـ نكتفى بالشرب اذن على الريق

ـ لو كان عندنا نبيذ كنا فى عرس

ـ أنا أحضر النبيذ

فقال الكندى للفور :

ـ اذا صرت الى احضار النبيذ فأحضر أيضا ما يصلح للنبيذ ..

فقال أشعب :

ـ ليس يمنعنى والله من ذلك ومن احضـــار النقل والريحان الا أن أحسب أنا صاحب الدعوة وليس يجوز ذلك ، الا أن يكون لك فيها أثر

ففكر الكندى لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :

ـ لقد انفتح لى باب : لكم فيه صلاح وليس على فيه فساد

والتفت الى نخلة عالية ملســـاء كأنها ثعبان قائمة فى طرف من أطراف البستان وقال :

ـ فى هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ، وان نحن وجدنا انسانا يصـعدها . ولم يطيرا ، فهما قد صارا ناهضين ، جعلنا الواحـــد « طباهجة » والآخر « كردجا » فكان نعم العشاء ، فهل لك يا أشعب فى صعود هذه النخلة

فنظر أشعب الى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب ، وصاح :

ـ هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها الا اذا كان اليـــوم آخر عمرى ، وأردت من ذلك دق عنقى ، اللهم اغننى عنك وعن طعامك يا شيخ !

□

وأراد أن ينصرف يائسا ، ولكنه فكر فى أمر عشائه



وقال أشعب للكندى : « هذه لاتصعد الا اذا كان اليوم آخر عمرى »

وليس فى المدينة الليلة وليمة ولا عرس ينسل اليه ،فعاد ينظر الى النخلة ، فرأى مرة أخرى أن علوها الشاهق يملأ النفس رعبا ، وأدرك أن صعودها لا يقدم عليه الا من طلب الموت ، فأخبر الكندى أن يعفيه وأن يطلب فى الجيران انسانا يصعدها ، فسألوا الجيران فلم يقبل أحد أن يفعل ذلك ، ودلهم بعض الناس آخر الأمر على أكار تلك حرفته ، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه ، فلما جاء ونظر الى النخلة تردد هو أيضا ، فما زالوا به يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة ، فلما صار فى أعلاها طار أحد الفرخين ، فأنزل الآخر وسلمه الى الكندى ، ووقف يتصبب عرقا فى انتظار الأجر ، فأخرج الكندى « فلسا » وضعه فى يد الأكار فنظر فيه مليا ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين، فقالوا جميعا :

ـ فلسا بعد هذا الجهد كله ، وهو غنى !. لو كان أعطى درهما على الأقل ، انه ذو مال !

فالتفت اليهم الكندى صائحا :

ـ اننى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم !

وأشاح بوجهه عنهم والتفت الى أشعب قائلا :

ــ الآن قد ظفرنا بالعشاء ، فابعث لنا فى طلب صاحبك الساكن الجديد

فنظر أشعب اليه شزرا :

ــ فرخ يمام واحد ، هو « الطباهج » و « الكردناج » وهو كل العشاء ؟!

ففكر الكندى لحظة ثم قال :

ــ انتظر ، لا تبرح

وأشار الى الأكار الواقف يتميز غيظا ، فترضاه وأغراه وذهب به وغبرا مليا ، ثم عادا يحملان أرزا بقشره ، وليس معهما شىء مما خلق الله الا ذلك الأرز . فلما صار الكندى الى بستانه كلف الأكار أن يجشه فى مجشة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه . الى أن فرغ الأكار من ذلك كله فكلفه الكندى أن يطحنه على ثوره وفى رحاه . حتى فرغ من طحنه . فكلفه أن يغلى له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء الحار لأنه به أكثر نزلا ، ثم كلف الأكار أن يخبزه . ثم طلب الى أشعب وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا

له فى الجدول الشصوص للسمك. وأن يسكروا الدرياجة على صغار السمك كى لا تدخل فى السواقى ، وأن يدخلوا أيديهم فى حجرة الشلابى ، حتى يصيبوا من السمك شيئا يجعل كبابا على نار الخبز تحت الطابق فلا يحتاج من الحطب الى كثير . فما زال أشعب منذ ذلك العصر الى الليل فى كد وجوع وانتظار الى أن أذن الله بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل ، وجاء الخبر من بيت الكندى أن اليمامة التى كان قد بعث بها لتطبخ طباهجا ، قد نضجت ، فصاح الكندى صيحة الظفر :

ـ يا أشعب ! هلموا الى عشائى ، وهنيئا مريئا لكم طعامى . فأحضر صاحبك الى دارى تجدوا الخوان قد نصب كأنه ايوان كسرى وعرش هرقل !

□

جرى أشعب الى صديق له من طرازه يدعى « بنان » فقص عليه الأمر وتوسل اليه أن يأتى معه الى دار الكندى فيظهر له أنه الساكن المنتظر حتى يبرأ أشعب من وعده: فاذا انتهى العشاء . وعاين الصديق الدار كان له أن

يتعلل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ ، ولم يكن عند بنان فى تلك الليلة ما يتعشى به هو أيضا . فما علم أن العشاء مضمون حتى خرج من داره الخالية لوقته مع أشعب .. وسارا فى الطريق فأوصاه أشعب أن يفهم الكندى أول الأمر أنه قابل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط

فالتفت بنان الى صاحبه قائلا :

ـ قد فهمت دفع الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط ؟

فأجاب أشعب :

ـ فى شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة ، ونشوار العلوفة ، وأن لا يخرجوا عظما ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان ، وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حبلى فى بيته

▭

أقبل الضيفان على دار الكندى فألفياه قد أعد الخوان

وجلس فى انتظارهما يتلمظ ويقول :

ومن البليـــة فى المـــوائد أن يرى
قوم جيـــاع فى انتظـــار القـــادم

فقعد أشعب من الفور أمام الطعام وأجلس زميله جواره وهو يقول :

سواء علينـــا أقدموا أم تأخروا
نوافى مع الطبـــاخ ســـاعة يغرف

وأشار الى صاحبه بنان بعد أن غمزه بكوعه :

ـ لقد انتظرت صاحبى هذا انتظار الآكل للشبع !

فقال الكندى :

ـ انتظرته اذن قليلا ؟

فأجاب بنان للفور :

ـ نعم ، لقد انتظرنى مقدار ما يأكل انسان رغيفا !

وتناول الخبز . فقال الكندى : لقد انتظرك اذن طويلا ولم يلتفت الضيفان الى صاحب الدار ولم يجيباه بعد ذلك . وأشعب وبنان اذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد معهما حظ فى الطيبات ، فما جاءت القصعة فيها الثريدة كهيئة الصومعة مكللة بتلك اليمامة المعهودة ، حتى أخذ

أشعب الذى يستقبله ثم أخذ ما عن يمينه وأخذ ما بين يدى صاحب الدار ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك ، وعارضه زميله بنان وحاكاه. فلما أن نظر الكندى الى الثريدة مكشوفة القناع مسلوبة عارية، والفرخ كله بين يدى أشعب وزميله الا قطعة جناح صغيرة بين يديه ، تناولها فوضعها قدام الضيف الجديد واحتسب بها فى سبيل الكرامة والبر والضيافة، وهو يتميز ويقول ليخفى غيظه الكظيم :

ـ قالت الحكماء : « عليكم بشرب الماء على الغداء » فلو شرب الناس الماء على الطعام ما اتخموا. وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء ، وربما كان شبعان وهو لا يدرى ..

فقال بنان :

ـ شبعان ! والله نحن انما نسمع بالشبع سماعا من أفواه الناس ! ثم مد يده الى الخبز . فغمزه أشعب هامسا :

ـ تمهل وتحشم ، الا يفطن الينا ويفر منا . أنت لا تعرفه : لأن يطعن طاعن فى الاسلام أهون عليه من

أن يطعن فى الرغيف الثانى !

فسحب بنان يده ، وهو يهمس فى أذن أشعب :

ـ أويريد أن يكون بين الرغيف والرغيف فترة نبى؟!

ولحظهما الكندى وظن أنهما يتساران فى أمر الخبز ويستصغران حجمه . فأمسك برغيف ورطله فى يده وقال :

ـ يقولون ان خبزى صغير ! فمن الزانى ابن الزانية الذى يستطيع أكل رغيفين منه !

فبهت بنان ، وأراد أن يفتح فاه ، واذا بالباب قد فتح عليهم ودخل جار للكندى ، فرأ الجميع السلام وهم يأكلون فردوا عليه ، ولم يعرض الكندى عليه الطعام ، فاستحيا أشعب من الرجل وهو جاره فى السكن ، فما تمالك أن قال له :

ـ سبحان الله ! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل

فتأدب الرجل وقال حياء :

ـ قد والله فعلت

فأسرع الكندى يقول :

ـ ما بعد القسم بالله شيء

فكتف الرجـــل بذلك كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا ، وتركه فى مكانه لا يريم . ولو مد الرجـل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر . ورأى الرجل دقة موقفه فتحرك منصرفا خجلا . فرق له أشعب وقال له :

ـ أين تريد ؟

فقال الرجل :

ـ الى منزلى أتوضأ

فقال له أشعب :

ـ ولماذا لا تتوضأ ها هنا ؟ فان الكنيف خال نظيف ، والغلام فارغ نشيط ، وليس من الكندى حشمة،ومنزله منزل اخوانه

فدخل الرجل فتوضأ . والكندى ينفخ من الغيظ ، ولحظه أشعب فقال له :

ـ هون عليك.انما كل بغيتى أن أسخيك وأنفى عنك التبخيل وسوء الظن

فقال الكندى :

ـ فهمنا أن تدعو الناس الى غدائى لتسخينى ، ولكن لا أفهم أن تدعوهم ليخرءوا عندى !

وعاد الرجل فجلس عن كثب وأخرج من جيبه رقعة قدمها الى الكندى قائلا :

ـ جاءتنى رقعتك اليوم وفيها أنك تزيد على أجر الدار خمستين ، لأن ابن عمى ومعه ابن له قد نزلا على ضيفين !

فأجاب الكندى على الفور :

ـ نعم ، اذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك ، وان كان اطماع السكان فى الليلة الواحدة يجر علينا الطمع فى ليال كثيرة

فقال الرجل :

ـ ليس مقامهما عندنا الا شهرا أو نحوه

فقال الكندى :

ـ ان دارك بثلاثين درهما وأنتم ستة ، أى لكل رأس خمسة ، فأما وقد زدتم رأسين فلابد من زيادة خمستين. فالدار عليك من يومك هذا بأربعين

فقال الساكن متعجبا :

– وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على الارض التى تحمل الجبال ؟ ان ثقل مؤنتهما على أنا دونك . ما هو اذن عذرك لأعرفه ؟

فترك الكندى الأكل واتجه الى ساكنه قائلا :

– عذرى واضح كالنهار . والخصال التى تدعو الى ذلك كثيرة . وهى قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما فى تنقيتها من شدة المؤونة . ومن ذلك أن الاقدام اذا كثرت، كثر المشى على ظهور السطوح، والصعود على الدرج ، فينقشر الجص وينكسر العتب ، واذا كثر الدخول والخروج والفتح والاغلاق وجذب الاقفال ، تهشمت الابواب وتقلعت الرزات . فساكن الدار هو المتمتع بها والمنتفع بمرافقها وهو الذى يبلى جدتها ويذهب عمرها بسوء تدبيره ، وانه ينسى أن المالك ما أسكن داره الا بعد أن كسحها ونظفها لتحسن فى عين المستأجر ، فاذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخرابا لا تصلحه الا النفقة الموجعة ، ثم لا يدع بعد ذلك مترسا الا سرقه ولا سلما الا حمله ، واذا أراد الدق فى الهاون ترك الصخرة

المجعولة لذلك ودق على الأجـذاع حيث جلس تهاونا وقسوة وغشا . هذا فضلا عما يحـــدثه من الشغب مع الجيران والتعـرض لهم واصـــطياد طيورهم وتعريضنا لشكاياتهم . فاذا أردنا أن نجعل الغرم بالغنم ، وأن نطلب بضعة دراهم لاصـــلاح الفساد المنتظر سمعنا عبـارات الاحتجاج وطولبنا بابداء الأعذار والأسباب !

وسكت الكندى فجأة ، فقد حانت منـــه التفاتة الى الضيفين ، فوجدهما قد انتهزا فرصـــة اشتغاله بالكلام وأمعنا هما فى محو أثر الخبز والسمك ، الا « شبوطة » كان قد نجح فى وضعها بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها لسمنها وكبرها ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظن عنـد نفسه أنه قد خلا بها وتفرد بأطايبها ، فما كاد يحسر عن ذراعيه ويصمد لها حتى هجمت يد أشعب عليها ، فلما رأى هذه اليد فى السمكة رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف وأيقن بالشر وعلم أنه قد ابتلى ، ولم يلبث أشعب حتى قبض على قفا الشـــبوطة فانتزع الجـانبين جميعا واكتسح ما على الوجهين . فلما أكل أشعب جميع أطايبها وبقى الكندى فى النظـــارة ، ولم يبق فى يده مما كان

يأمله فى تلك السمكة الا الغيظ الشديد ، بينما هو يرى أشعب يفرى الفرى ويلتهم التهاما صـــاح به : حسبك لا يقتلك الطعام !

فأجاب أشعب وفمه ممتلىء :

ـ اذا كان الأجل موقوتا ، فلأن أموت شبعا أحب الى من أن أموت جوعا !

وقنط الكنـــدى من الأكل مع هـــذين الرجلين ، فانصرف الى الحديث مع جاره الســـاكن واتفق معه على الزيادة فى الكراء كما طلب ، وشيعه الى الباب ثم عاد الى الضيفين فوجـدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شىء يؤكل . وبنان يتجشأ ويقول :

ـ لعن الله « القدرية » .. من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام ، وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سآكله !

فكظم الكندى غيظه وقال فى نفسه :

ـ تعال غدا فان وجدت شيئا فالعن « القدرية » والعن آباءهم وأمهاتهم !

وجلس الضيفان بعـد أن غسلا أيديهما يتخللان من

الطعام ، وهما على خير ما يكون الانسان راحة وهناء . وجعل الكندى ينظر الى خوانه منتهك الحرمة ، عليه بقايا العظام والأشـــواك كأنها جثث القتلى بعد المعـركة ، فساورته الهموم وتحركت فيه غريزة البخل ، وشـعر بالكرب والغم . فما تمالك نفسه ، وأقبل عليهما يقول فى نبرة المتوسل :

ـ أسألكما بالله الذى لا شىء أعظم منه ، أنا السـاعة أيسر وأغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟

فقالا معا :

ـ ما نشك أنك حين كنت والطعـام فى ملكك كنت أغنى وأيسر

فقال :

ـ فأنا الساعة أقرب الى الفقر أم تلك الساعة ؟

قالا :

ـ بل أنت الساعة أقرب الى الفقر

فلم يحتمل الكارثة،وصاح فى نبرةألم وندم وغضب:

ـ آه ! من ذا الذى يلومنى اذن عـلى ترك دعوة قوم

قربونى من الفقر وباعدونى من الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر كنت من الفقر أقرب ؟ !

فرأى أشعب الخطر والضرر كله فى ترك هذا الرجل على هذه العقيدة فأسرع يقول له :

ــ ولكن قد فاتك أمر : انك الليلة انما تنفق اليسير لتجنى الكثير. ما هذا الطعام القليل النفقة الخفيف المؤونة الى جانب ما سوف تتقاضاه من هذا الساكن الجديد كراء لدارك الخالية؟ أما كنت تقول الساعة ان الغرم بالغنم ؟!.. فأنت والله فى آخر الأمر الغانم الرابح !

فتفكر الكندى لحظة وبدا عليه الاقتناع ، فاطمأن فى الحال قلبه وانفرجت أساريره وضحك للمرة الأولى ضحكة الارتياح .. وقال :

ــ اذن فادع لى !

فرفع أشعب يديه الى السماء وقال :

ــ من الله عليك بصحة الجسم وبسطة اليد وسعة الصدر وكثرة الأكل ونقاء المعدة ، وأمتعك بضرس طحون ومعدة هضوم ، مع السعة والدعة والأمن والعافية !.. هذه دعوة مغفول عنها !

جعل أشعب وبنان يدللان الكندى ويفكهانه ولم يشكا أنه سيدعو اليهما تلك الليلة بنبيذ فيملآن بيته الى الفجر نزهة ونشوة ، ولكن الكندى جعل يتغافل ويتناوم. فلمح له أشعب بما يصبو اليه قائلا :

ــ ان المجلس والله .. ليس فيه غناء ولا نبيــــذ فهو كالبيت الخرب !

فلم يسمع لكلامه صــدى . وطال تغافل الكندى فلم يجد أشعب بدا من التصريح . فأقبل عليه يقول :

ــ اجعلها مرة ليس لها أخت . ودعوة لن تعــود الى مثلها . واضحك واطرب ليلة فى العمر بقليل من نبيذ !

ولما بلغ منه ومنهما المجهــــود ورأى الكنـدى أنهما مقيمان مصران ، غير منصرفين قبـــل أن يظفرا منه بما طمعا فيه ، قام فأحضر لهما قربة نبيذ مع أكواب ووضعها بين يدى أشعب وقال له :

ــ الآن غن واطربنى والأمر لله !

فانقض أشــعب وبنان على الكؤوس . وشرب بنان شرب العطشان الصادى . وأفرغ أشعب كأسه فى جوفه وهو يرفع عقيرته منشدا :

امــدح الكأس ومن أبدعهــا
واهــج قوما قتــلونا بالعطش
انما الكأس ربيــع باكــر
فاذا ما لم نذقهــا لم نعــش

فطرب الكندى للصوت ولكنه قال كالمخاطب نفسه :

– والله ما قتلوكم بالعطش. ولكنكم أنتم قتلتم أنفسكم بالشره

وملأ كأسه وقال : غن أيها المغنى !

فملأ أشعب كأسه وصاح بصوته الجميل :

لا تحفلن بقــول اللائم الــلاحى
واشرب عــلى الورد من مشمولة الراح
كأسا اذا انحـدرت فى حلق شــاربها
أغنــاك لألاؤها عن كل مصــباح

فصــاح الكندى من الطرب صــيحة مدوية دهت الضيفين . وأفرغ فى حلقه كأسا أخرى وهو يقول :

اســـــقنى حتى ترانى مائلا
وترى عمران دينى قد خرب

وسكر الكندى . وأمعن أشعب فى الغناء :

ما زلت آخـــذ روح الدن من لطف
وأســـتبيح دما من غـــير مجروح
حتى انثنيت ولى روحان فى جسدى
والدن مطرح جســـم بلا روح

فطرب الكندى ولم يدر ما يصنع من شـدة الطرب ، فشق قميصه وقال لأشعب :

ـ افعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسى . .

فنظر اليه أشعب دهشا . . . فصاح الكندى :

ـ ويلك ، شق أيضا أنت قميصك !

فقال أشعب جزعا :

ـ أصلحك الله ! أتريد أن أشقه وليس لى غيره !

فقال الكندى : « شقه وأنا أكسوك غدا »

فأجاب أشعب : « فأنا اذن أشقه غدا »

فقال الكندى : « وأنا ماذا أصنع بشقك غدا ؟ »

فقال أشعب : « وأنا ماذا أرجو من شقه الساعة ؟ »

ولبثا فى ذلك وقتا يتساومان،وبنان ينظر اليهما ويعجب وأخيرا صاح فى الكندى :

ـ ماكل هذا ؟ انىلم أسمع قط بانسان يحاور ويناظر

فى الوقت الذى انما يشق فيه القميص من غلبة الطرب! اذا كنت قد طربت الآن حقا ، فاكسه الآن القميص !

وهزت الكندى نشوة الخمر ونخوة الوهم ، فى غفلة من غريزته النائمة فقام يتعثر الى قميص جديد عنده فأتى به وكساه أشعب . فلما صار القميص على أشعب ، خاف البدوات ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فتحين الفرص،وأوهم الكندى أنه ذاهب لقضاء حاجة ، ثم مضى توا الى منزله بالقميص فجعله « برشكانا » لامرأته

ومضى من الليل أكثره وركب النوم الكندى وبنان ، وهما ما برحا فى انتظار عودة المطرب . فانطرح بنان على الأرض جاعلا فراشه البساط ومرفقته يده ، ولم يكن فى المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد الكندى اكرام ضيفه فأخذ المخدة فرمى بها الى بنان فأباها وردها عليه . وأبى الكندى ، وأبى هو . ولبثا هكذا يتطارحان التأدب ويتقارضان المجاملة فى لسان متلعثم وجذع متمايل . الى أن صاح صاحب البيت آخر الأمر :

ـ سبحان الله !كيف يكون أن تتوسد مرفقك وعندى فضل مخدة ؟!

فأذعن بنان وأخذها فوضعها تحت خده . ومر بعض الليل دون أن يغرق بنان فى النوم ليبس الفراش ورداءة الموضع . وظن الكندى أن الضيف قد نام . فجاء قليلا قليلا حتى سل المخدة من تحت رأســه . فلما رآه بنان قد مضى بها ضحك وقال : قد كنت عن هذا غنيا !

فارتبك الكندى وقال : «انما جئت لأسوى رأسك»

فقال بنان : « انى لم أكلمك حتى وليت بالمخدة »

فأجاب الكندى : « كنت لهذا جئت ، فلما صـــارت المخدة فى يدى ، نسيت ما جئت له ، والنبيــذ ما علمت والله يذهب بالحفظ أجمع ! »

وأراد الكندى أن يرد عليه المخدة . فأبى بنان ،فألح وألح . وعادت المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد . فلم يخلصهما منها الا غلبة النوم الثقيل فى الهزيع الاخير من الليل . فانطرحا كأنهما حجران والمخدة عن كثب منهما منطرحة منفردة وحيدة

وطلع النهار وأحس بنان ضرب الشمس فى وجهه فنهض ونظر حوله مذعورا ، فأدرك ما كان فيه . ورأى الكندى ممددا يغط على مقربة منه فأسرع الى نعله فحمله

فى يديه وانطلق الى الطريق قبل أن يستيقظ ...

وعلا النهار ... وأقبل بعض أهل البيت ينقرون على باب الحجرة فصحا الكندى . وفرك عينيه وألقى نظرة على المكان فهم منها كل شيء ، فبحث عن الضيفين فلم يجدهما ، فصاح صيحة منكرة ووضع نعله فى قدميه وانطلق الى مسكن أشعب فدق عليه الباب ، فخرج له فقال له :

ـ أين الساكن ؟

ـ لقد تركته بين يديك فأنت الذى تسأل عنه

ـ وأين القميص ؟

ـ انك قد وهبتنى اياه

فقال الكندى فى رفق مصطنع :

ـ أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ وبعد فانى أكره ألا يكون لى حمد ولا شكر ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر فرد على القميص حتى أهبه لك صاحيا عن طيب نفس . فانى لا أحب أن يذهب شيء من مالى باطلا

فلم يتحرك أشعب لهذا القول . وعلم الكندى أن

مغنيه ونديمه ومستأجره لا تنطلى عليه هـــذه الحجج .
فأقبل عليه يقول متلطفا :

ـ يا أشعب،ان الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشىء فرد القميص عافاك الله !

فقال أشعب مبتسما : « انى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبى الى الارض حتى جئت به لامرأتى ، وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم ، فان أردت بعد هــذا كله أن تأخذه فخذه »

فقال الكندى على الفور :

ـ نعم آخـــذه . لأنه يصـــلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك

ومد ذراعه . فقال أشعب : « انه عند الصباغ »

فقال الكندى : « هاته »

ـ ليس أنا أسلمته اليه

فعلم الكندى أنه قد وقع ، وأن لا حيلة له ولا منفذ ولا أمل ولا رجاء ، فقال فى زفرة حارة من كبد محروقة:

ـ بأبى وأمى ، صدق رسول الله حيث يقول : « جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه : السكر! »

أشعب وبنان

ما وافى عصر ذلك اليوم حتى جاء أشعب رسـول يحمل رقعة من القينة الجميـلة تستنجزه فيها الوعد ، وتخبره أنها راحلة فى الغد الى شأن من شـؤونها فى الكوفة ، وتعرض له فى ختامها بجفاء قلبـه وزيف وده وتبدى له ريبتها فيما يظهره لها من الوجـد . فلم يدر أشـعب ما يفعل ولا كيف يجيب . فأمسك آخر الأمر بالرقعة وكتب فى ذيلها :

أنا والله أهـواك ولكن ليس لى نفقه
فأما كنت تهوينى فقد حلت لى الصدقه

فذهب الرسول بهذا الرد الى الجارية ، وخرج أشعب الى الطريق يستنشق الهواء ويفكر فى أمر العشاء ، واذا العشيقة قد أقبلت بعد قليل ، فما كاد يراها حتى وقف فى مكانه حائرا لا حراك به

فسلمت عليه وقالت :

ـ لا تخش شيئا . انما أتيت لأودعك قبل رحيلي غدا . والله لولا اشتغالي اليوم باعداد حوائجي ومتاعي واخلاء داري لوافيتك بما تشهيت علي من تلك الأطعمة التي يحبها قلبك وتهيم بها معدتك !

فقال لها :

ـ وماذا أنت صانعة في الكوفة ؟ أذاهبة للغناء ؟

فقالت : « نعم ، انك فيما أظن قد رضيتني حذاقة به ومعرفة »

فقال : « نعم ، ولكن اختلفي أيضا الى مجمع مولى الزبير فانه حسن الغناء ، فاعلقي من غنائه أصواتا عشرة . فانك والله لخليقة أن تفتني الناسك وتخرجيه من صومعته ساجدا لك » . فقالت :

ـ كنت أود أن أتزود منك الليلة بصوت أو صوتين

فسقط في يد أشعب . وارتبك واشتدت حيرته فلم ير ما يصنع . وتفكر لحظة ، ثم قال في نفسه : « ما لي الا منزل بنان ! » ، ونظر اليها ثم قال : « اتبعيني ! »

وسار وهو يقلب الأمر على وجوهه ، انه

لا يجهل أن وقوع طفيلي على طفيلي لا يجوز ، ولكن وجود الحسناء معه فيه العذر والحجة ، وقد يرق بنان لجمالها فيتسع صدره وتنبسط يده ويوفي الضيافة حقها.

واقتربا من الباب . فاستوقفها ، ثم ذهب فنادى رفيقه فخرج اليه فقال همسا :

ـ أكمل الخير ! معي وجه صبيح ، يعدل الدنيا بما فيها ، وقد حصل على ضيقة وعسر واملاق

فقال بنان على الفور :

ـ قد شكوت أنت والله مما كدت أباديك أنا لشكواه!

غير أنه نظر الى ناحية المرأة ورأى رشاقة قدها فقال:

ـ ائت بها والله المستعان !

فدخلت القينة خلف أشعب ، واستقبلها بنان بالتحية، فسفرت فاذا هو يرى وجها رقيقا كأنه كوكب ، به عينان مملوءتان سحرا وأنف كأنه قصبة در ، وفم كأنه جرح يقطر دما . وردت عليه التحية بلسان فصيح ، فحار بصره وذهب لبه وجل خطبه وتلجلج لسانه وتغللت رجلاه،ثم ثاب اليه عقله فدعاها للجلوس في صدر المكان وسألها قائلا :

ـ أيتها الجارية ! انسية أنت أم جنية ، سمائية أم أرضية ؟ !

فضحكت القينة وقالت : « بل انسية أرضية واسمى رشأ »

فسر أشعب واطمأن قلبه لما رأى من افتتان بنان ، وأنشد بصوته الرخيم وصناعته البارعة :

رشأ لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتن
كل يوم يسترق له حسنه عبدا بلا ثمن

وأشار بأصبعه الى بنان ، فقال بنان :

ـ اى والله عبد بلا ثمن ، لو سمحت بذلك سيدتى !

فابتسمت له الجارية ابتسامة طار لها لبه فقال :

ـ انك والله لتختلسين الأرواح بحلاوة ابتسامتك وتذهلين الألباب ببراعة منطقك ، فكيف لو كنت تجيدين الغناء ؟

فتبادلت القينة مع أشعب النظر . ثم انطلقت تغنى :

ولى كبد مقروحة ، من يبيعنى
بها كبدا ليست بذات قروح ؟

أبى الناس، كل الناس ، لا يشترونها

ومن يشـــترى ذا علة بصحيح ؟

فطرب أشعب . وقام بنان من فوره فجلس بين يدى الجارية وقال :

ـ كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق ، لو كانت الدنيا لى كلهــا صررا فى كمى لقطعتها لك ، فأما اذ لم يكن لى من ذلك شىء ، فاللهم اجعل كل حسنة لى لك ، وكل سيئة عليك على

فابتسمت رشأ وقالت :

ـ جزاك الله خـيرا . فوالله ما يقوم الوالد لولده بما قمت به لنا

فقام أشعب من فوره وقعد بين يديها وقال :

ـ كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طــالق ان كان وهب لك شيئا أو حمل عنك وزرا . فهو ماله حســنة يهبها لك ، ولا عليك سـيئة يحملها عنك . فلأى شىء تحمدينه وتشكرينه ؟

فضحكت وضحك بنان..وأمسك بنان بيدها فلثمها وقال :

ـ بحقى عندك

ـ ماذا ؟

ـ تزيدين فى السماع

فنظرت اليه وقالت :

ـ وأنت ، كيف علمك بالغناء ؟

فقال مرتبكا :

ـ علم لا أحمده

فقالت :

ـ فعلى م اذن أنفخ بغير نار ! ما منعك من معرفته ؟

فتدخل أشعب قائلا : « منعه من معرفته أن له صوتا أقبح من وجهى ! »

فنظرت القينة الى بنان وقالت باسمة :

ـ لن أردك مع ذلك خائبا . . أزيدك فى السماع !

وانطلقت تغنى :

أنا التى لم ير مثلى بشر
كلامى اللؤلؤ حين ينتشر

أســحر من شئت ولست أسحر
ان ســـمع الناس كلامى كفروا

فاستخف أشعب الطرب ، ولم يدر ما يصنع . فنهض فى الحال ونزع عمامته عن رأسه وألقى بها من النافذة .

فصاح به بنان :

ـ ويلك ، ما فعلت بعمامتك ؟

فقال أشعب :

ـ تصدقت بها على الشيطان الذى أجرى هذا الكلام وهذا الغناء على لسانها !

فأخذ بنان للفور عمامته هو أيضا ورمى بها من النافذة قائلا :

ـ أتسبقنى أنت الى بر الشيطان ؟ !

وضحكت الجارية . وضحك الجميع . وخرج أشعب الى الطريق يأتى بعمامته . وخرج بنان خلفه يفعل مثله، فما كادا ينفردان حتى همس أشعب فى أذن صاحبه :

ـ ويحك ! متى الطعام والشراب ؟ هذا والله لا يليق

فأخرج بنان من ثيابه منديلا نفيسا يضن به ويحرص عليه ، وقال :

ـ لا أملك والله غير هذا المنديل

فاختطفه أشعب من يده قائلا :

ـ هو البغية

فقال بنان : « خذه .. لا بارك الله لك فيه ! »

وجرى أشعب به توا الى السوق

▭

عاد أشعب مع المســـاء ، وقد باع المنديل بدينـار ، واشترى لحما وخبزا ونبيذا ، ودخل على صاحبيه بنان والجارية ، فاذا هما يتساقطان حـديثا كأنه قطع الروض الممطور ، واذا بنان يقول لها فى شبه همس :

أترى الزمان يسرنا بتــلاق ويضم مشتاقا الى مشتاق ؟

فتجيبه هى بصوت خفى وترجيع شجى :

ما للزمان يقال فيه ؟ وانما أنت الزمان ، فسرنا بتلاق

فوقف أشعب على رأســيهما قائلا : « ما شاء الله ! ما شاء الله ! »

فانتبها مذعورين ، والتفت بنان الى رفيقه قائلا : « ما صنعت ؟ »

فوضع أشعب بينهما الطعام والشراب ، وأخبره بما فعل ، فقال له بنان :

ـ كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه نظيف بلا نقل ولا ريحان ولا طيب ؟ اذهب فاكمل الخير !

فخرج أشعب يكمل الخير وهو يعدو عدوا حتى لا تطول له غيبة ..

□

وأقبل أشعب بالنقل والريحان والطيب وهو يلهث . وكان ظلام الليل قد هبط . فألفى باب الدار مفتوحا كعهده به عند خروجه ، فدخل . واذا هو لا يرى لصاحبيه ولا لشيء مما كان قد أتى به أثرا . فسقط في يده . وبقي متلهفا حائرا يرجم الظنون ويجيل الفكر سائر وقته ، حتى مضى من الليل جزء ، ونفد صبره ، فقال في نفسه :

ـ أفلا أدور في البيت لعل البحث يوقفني على أثر ؟

ونهض يجوس خلال الدار ، واذا هو يقف على باب سرداب ، واذا صاحباه قد هبطا فيه وأنزلا معهما جميع

ما يحتاجان اليه ، فأكلا وشربا وتنعما . فلما أيقن أشعب ذلك دلى رأسه ثم نادى زميله :

ـ ويلك يا بنان !

فلم يجبه أحد . فرفع صوته ونادى ثلاثا . فأجابه آخر الأمر صوت بنان من أعماق السرداب :

وأمسيت فى ليلين : للشعر ، والدجا
وشمسين من : كأس ، ووجه حبيب

ثم سكت الصوت . وأراد أشعب أن يستجلب كلام صاحبيه ، فلم يجيباه . .

فبات وحده ليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها طولا وغما . وطلع النهار ، فخرج اليه بنان ، فما كاد يراه حتى وثب اليه صائحا :

ـ أهذا يصح يا بنان ؟

وجعل يؤنبه ، فقال له بنان :

ـ يا صفيق الوجه ! منزلى ومنديلى وطعامى وشرابى ، فما شأنك فى الوسط ؟ !

فبهت أشعب لحظة ، ورأى الجواب مفحما فقال « متمحكا » :

ـ حق القيادة والفضول ، والله لا غير !

وظهرت الجارية فى تلك اللحظة ، فولى بنـان وجهه اليها وقال لها :

ـ بحياتى الا أعطيته حق قيادته وفضوله !

فقالت باسمة : « أما حق قيادته فعرك أذنه. وأما حق فضوله فصفع قفاه »

فنظر أشعب اليها فاغرا فاه . واستقبله بنان على الفور فعرك أذنه وصفعه ، فالتفت أشعب قائلا : « ما هذا ؟ »

فأجاب بنان : « الحكم »

فوضع أشــعب يده على مكان الصفعة ونظر الى بنان شزرا :

ـ الحكم ؟!

فقال بنان باسما :

ـ نعم ، جرى الحكم عليك بما جرى لك من العــدل والاستحقاق

□

مرت أيام ضاقت فيها الدنيا بأشعب حتى نسى شــكل

الخبز وطعم اللحم. فخرج من الجوع يهيم فى الاسواق. فلم يظفر بشىء. ولم يفتح الله عليه بمنظر أكل ولا آكلين. ولم يبلغ أذنيه حتى مجرد ذكر الطعام، سوى قول جماعة مروا به فى الطريق يتحدثون فى أمر المسيح الدجال. فقال أحدهم:

ـ ان الدجال رجل يخرج فى سنة قحط معه « جرادق » أصبهانى، وملح « درانى » و « انجذان » سرخسى!

فتلمظ أشعب وصاح فيهم:

ـ هذا، عافاكم الله، رجل يستحق أن يستمع له ويطاع!

ثم سار فى طريقه على غير هدى، حتى قادته قدماه الى بيت صديقه بنان، فوقف تحت نافذته وأنشد:

أنا فى حال تعالى الله ربى أى حال
ليس لى شىء اذا قيل: «لمن ذا؟» قلت: «ذا لى»
ولقد أفلست حتى محت الشمس خيالى
ولقد أفلست حتى حل أكلى لعيالى

فأطل عليه بنان من النافذة وقال له: « ادخل! »

فدخل أشعب مسرعا يقول: « حفظك الله وأبقاك! »

وجعل يتنسم رائحة قتار أو طعـــام فى البيت فبادره بنان بقوله :

ـ انى لم أدعك من أجــل ذلك ! فأنا حالى كحالك انما قد خطر لى خاطر لعل فيه النجاة لى ولك

ـ ما هو ، أصلحك الله ؟

ـ ما قولك لو رحلنا معا اليوم الى مكة فقد نجد فيهـا رزقا ؟ وقديما قالوا : فى السفر سبع فوائد . ونحن والله لا نبغى غير فائدة واحدة هى : الطعام ومعاشرة الكرام

ـ وكيف لنا بالسفر ؟

ـ اليــــوم ترحل قافلة الى مكة ، لى فيها من يحملنى ويحملك بغير نفقة . . . فهلم بنا !

□

مضى أشعب وبنان من ساعتهما الى القافلة . وكان اليوم يوم جمعة . فبينا هما فى الطريق مرا بمسجد قد ازدحمت فيه الناس تصلى الجمعة . فتمهل أشعب وحدثته نفســه بالصلاة . فأخبر زميله ، فانتهره ، وثناه عن رغبته فأصر أشعب قائلا :

ـ أريد أن أستعين ببركات الصلاة على وعثاء الفلاة

ـ اذهب أنت وحدك ، ولئن فاتتك القافلة فليس على لوم

ـ انما هى ركعة أستودع بها المدينة

ومشى بنان فى طريقه . وعرج أشعب على المسجد ودخل . وكانت الصلاة قد بدئت . ووجد الصف تاما . فلم يستطع أن يقوم وحده ، فجذب ثوب شيخ أمامه فى الصف ليتأخر فيقوم معه ، فلما تأخر الشيخ ورأى أشعب الفرج تقدم فقام فى موضع الشيخ وترك الشيخ قائما خلفه ينظر فى قفاه ويدعو الله عليه . وكان الامام من سوء الطالع رجلا مبطاء ثقيل الحركات ، فجعل يقرأ فاتحة الكتاب بقراءة « حمزة » مدة وهمزة ، ثم انحنى للركوع بنوع من الخشوع لم يعهده أشعب من قبل ، ثم رفع رأسه ويده وقال : « سمع الله لمن حمده » وقام حتى ما شك أشعب أنه قد نام . وحل بأشعب الغم وأيقن بفوات القافلة ، وضرب الامام بيمناه وأكب لجبينه ثم انكب لوجهه ، وأشعب يتقلى على نار الصبر ويتقلب على جمر الغيظ ، وليس له الا السكوت والاذعان ، أو الكلام

والقبر ، لما يعلم من خشونة القوم فى ذلك المقام لو أنه قطع الصلاة قبل ختامها . فنزل على حكم الضرورة وقد قنط من الرحل والرحيل . ثم راجعه الأمل فرفع رأسه ينتهز فرصة فلم ير بين الصفوف فرجة. فعاد الى السجود يائسا ، حتى كبر الامام للقعود وقام الى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة وسورة القارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة ، وكاد يستنزف أرواح القوم . فلما فرغ من ركعتيه وأقبل على التشهد ومال الى التحية ، وقال أشعب فى نفسه : « لقد سهل الله المخرج وقرب الفرج » اذا رجل قد قام من بين الناس صائحا : « أيها الناس من كان منكم يحب النبى والصحابة فليعرنى سمعه ساعة »

فلم ير أشعب مناصا من أن يلزم مكانه كما فعل جميع الناس

وصاح الرجل : « أيها الناس ! خليق بى أن لا أقول غير الحق ولا أشهد الا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم ، ولكنى لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوته

فربط هذا القول أشعب بالقيود وشده بالحبال ، فلو تحرك بعدئذ وقام من بين الناس لكان هو ذلك النذل

الجاحد فى نظر الجميع ، ومضى الرجل يقول : « رأيته فى المنام صلى الله عليه وسلم كالشمس تحت الغمام والبدر ليل التمام ، يسير والنجوم تتبعه ، ويسحب الذيل والملائكة ترفعه ، ولقد علمنى دعاء أوصانى أن أعلمه أمته ، فكتبته على هذه الاوراق بمسك وزعفران ، فمن دفع لى ثمن القرطاس أعطيته »

فانهالت الدراهم على الرجل حتى حيرته ، ورأى أشعب ذلك فتعجب من حذق الرجل واحتياله لرزقه ، وجعل يتأمل فصاحته فى وقاحته ، وربطه الناس بهذه الحيلة البارعة ، وأخذه المال الوافر بهذه الوسيلة اليسيرة !

وخرج أشعب من المسجد وهو يفكر فى الأمر ويقول فى نفسه : « ما كان أحرانا أن نحتال للعيش بمثل هذه الحيل ، بدلا من انتظار الولائم والأعراس ! » ، وسار فى طريقه حتى بلغ مكان القافلة فعلم أنها رحلت بصاحبه . فعاد خائبا فى غم وجوع لا يدرى أين يذهب ولا كيف يجد غداءه ، واذا هو برجل من ريف المدينة يسوق حماره وعلى وجهه أمارات السذاجة ، فقال فى نفسه : « ظفرنا والله بصيد سمين »

وأقبل على الريفى صائحا : « حياك الله يا أبا زيد ! من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ومتى وافيت ؟ هلم الى بيتى ! »

فوقف الرجل دهشا يقول : « لست بأبى زيد ، ولكنى أبو عبيد »

فقال أشعب فى صوت المستدرك : « نعم لعن الله الشيطان وأبعد النسيان ، أنسانيك والله طول العهد ، كيف حال أبيك ؟ »

فقال الرجل : « لقد نبت الربيع على قبره »

فصاح أشعب : « انا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ! »

ومد يده الى صدره يريد أن يمزق قميصه من الجزع، فقبض الريفى على يده قائلا : « نشدتك الله لا تمزقه ! »

فأظهر أشعب التجلد والطاعة ، وأبقى على ثوبه ثم جذب يد الريفى قائلا :

ـ هلم الى بيتى كى نتغدى ، أو الى السوق لنشترى شواء ، نعم . . . السوق أقرب وطعامها أشهى

ومشى به الى حانوت شواء تتصاعد رائحة دخانه

شهية الى الأنوف فتحرك أفواه البطون ، وقال أشعب لصاحب الحانوت : « افرز لأبى زيد من هذا الشواء ! »

ونظر الى صوانى معروضة وقال : « ثم زن له من تلك الحلوى ، واختر له من تلك الاطباق. وأنضد عليها أوراق الرقاق ورش عليها شيئا من السكر وماء الورد ليأكله أبو زيد هنيئا ! »

فانحنى الشواء بشاطوره على ذلك اللحم الطرى . وقطع وقدم الى أشعب والريفى . فجلسا وأكلا حتى استوفيا . فقال أشعب لصاحب الحلوى :

ـ زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين ، فهو أجرى فى الحلوق ، وليكن رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤى الدهن ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيئا

فوزن صاحب الحلوى لهما . وقعد الرجلان وشمرا حتى استوفياه ، فقال أشعب للريفى : « يا أبا زيد ، ما أحوجنا الى ماء مشعشع بالثلج يبرد جوفنا بعد هذه الأكلة النظيفة ! »

فقال الريفى : « صدقت »

فقام أشعب وهو يقول له : « اجلس يا أبا زيد ولا تبرح حتى نأتيك بسقاء ! ». وخرج أشعب فائزا بالسلامة ومعدة مملوءة

ومضى النهار ، وعلم الريفى من ابطاء أشعب أنه لن يعود ونفد صبره من طول الانتظار ، فقام الى حماره ، فلمحه صاحب الحانوت فتعلق بثوبه وقال له : « أين ثمن ما أكلت ؟ »

فقال الريفى : « لقد أكلته ضيفا »

فلكمه صاحب الحانوت لكمة ، وثنى عليها بلطمة وقال له :

ـ ضيفا ؟ متى كنا دعوناك ؟ هاك فخذ ...

ونزل عليه الشواء لكما ولطما وهو يقول :

ـ زن يا أبا الوقاحة عشرين !

وجعل الريفى يصرخ ويلعن ويصيح : « لعن الله ذلك الشيخ المحتال ، لقد قلت له أنا أبو عبيد ، فيقول لى أنت أبو زيد ! »



وقال أشعب لصاحب الحانوت : « افرز لابي زيد من هذا الشواء »

الشعب في معركة

مرت الايام وأشـــعب لا يسمع خبرا عن بنان . ولا يجد سبيلا الى لقمة ، فقد عرفه الناس فى المدينة فلم تعد تنفع الحيلة ولا الوسيلة . ولم تعد تقع عينه على خوان ولا على قوم أمام طعام . كأنما الناس من لؤمهم قد أصبحوا يأكلون فى بطون الأرض أو أجـواز السماء . ومشى أشعب غداة ذلك اليوم لا ينتظر شيئا ولا يفكر فى شىء ، فدهم فى جانب من جوانب الطريق جماعة يتغدون وهم غرباء لم يعرفوه . فقال لهم :

ـ سلام عليكم معشر اللئام !

فرفعوا أبصارهم اليه قائلين : « لا والله بل كرام ! »

فثنى رجله فى الحال وجلس بينهم وهو يقول :

ـ اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلنى من الكاذبين !

ثم مد يده فى القصـعة التى بين أيديهم وهو يقول :

« ماذا تأكلون ؟ »

فأرادوا أن يقفوا تهجمه ، فقالوا فى فتور : « نأكل سما ! »

فحشا فمه وازدرد وهو يقول :

ـ الحياة بعدكم حرام !

وجعل يجول فى القصعة كما يجول الفارس فى الميدان . فلما رأوه قد أغار على أكلهم ، وكاد يحرمهم زادهم فى غير حشمة ولا حياء . نظر بعضهم الى بعض ثم التفتوا اليه قائلين :

ـ أيها الرجل ! هل عرفت منا أحدا ؟ فأشار أشعب بأصبعه الى الطعام وقال : « عرفت هذا »

فسكتوا عنه ، وقد استظرفوه ، وتبادلوا الحديث ، فعرف منهم أشعب ، أنهم من أهل مكة ، وقد جاءوا فى القافلة الاخيرة ، وقال أحدهم ان معه رقعة من رجل اسمه بنان فى مكة لرجل اسمه أشعب فى المدينة ، فاهتز أشعب سرورا وكشف لهم عن حقيقته. وتسلم الرقعة. وقرأها فعلم منها أن صاحبه قد استقر فى أحسن حال. وقد بارحته أيام العسر والضيق . وله حرفة شريفة يدر منها المال ، وهو يسأله أن يأتى اليه مع أول قافلة متهيئة

للرحيل ، كي يعاونه في ذلك العمل ويشاركه في ذلك الكسب الحلال . . .

قام أشعب من فوره فرحل مع قافلة ذاهبة الى مكة. ولم يكن معه مال ولا أحمال ، ولم يدر كيف غاب عن فطنه بنان ، وقد أصبح حسن الحال كما قال : أن يرسل اليه مع الرقعة بما يقيم أوده حتى الوصول . لعله خشى أن يأخذ أشعب المال ويكسل عن تجشم الرحيل . ولم يعدم مثل أشعب الوسيلة ، فقد سار مع القافلة على قدميه يغنيهم ويضحكهم . وقدكان سيره أول الأمر الى جانب ناقة عليها شيخ وشاب ، فلحظ أن الشاب كثير البكاء ، فاستعلم فأخبروه أنه عاشق لابنة عمه وقد فرقت بينهما الاحداث . وأن الشاب اشترك مع ذلك الشيخ فيالسفر والمؤونة وكانا على ضيقة وعسر . فجعلا لهما في كل يوم قرصا من الخبز . وكان الشيخ متخلع الاضراس بطىء الأكل ، فكان الشاب يبطش بالقرص ثم يقعد يشتكيالعشق ، ويتضور الشيخ جوعا ، وكان اسم ذلك

الشاب جعفرا . فجعل أشعب يغني فيهما قائلا :

لقـــد رابني من جعفر أن جـــعفرا
يطيش بقرص الشيخ فى آخر الليل
فقلت له : لو مســـك الحب لم تبت
سمينا وأنســـاك الهوى شدة الأكل

فضحكت القافلة وأنست الى أشعب. وحمله معه رجل من التجار يسافر وحده على جمل ، فلبث أشـــعب معه طول الطريق ينزلان ويقومان ، والرجـــل فى كل يوم يحضر الطعام ويجهزه وأشعب لا يصنع شيئا . فقال له الرجل ذات يوم : « قم اليوم فاطبخ »

فقال أشعب : « لا أحسن ذلك »

فطبخ الرجل . ثم قال لأشعب : « قم فاثرد »

فقال أشعب : « والله كسلان »

فثرد الرجل ، ثم قال : « قم فاغرف »

فقال أشعب : « أخشى أن ينقلب على ثيابى »

فغرف الرجل ثم قال لأشعب : « قم الآن فكل »

فنهض أشعب مسرعا قائلا : « قد والله استحييت من

كثرة خلافى عليك ! » ، وتقدم الى الأكل فقام فيه مقام رجلين

▭

وصل أشعب الى مكة وسأل عن بنـان ، فقيل له انه كان قد اســتأجر دارا فى مكة يجمع فيها بين الرجال والنساء ويحمل لهم الطعام والشراب . فشكاه الناس الى والى مكة فنفاه الى عرفات ، فمشى أشعب من ســاعته الى عرفات ، فوجد صـاحبه قد أقام فيها منزلا ورأى أمام المنزل قطيعا من الحمير مرتبطة ، فما رآه بنان داخلا عليه حتى فتح له ذراعيه وتعانقا ، وأخبره بما هو فيــه من الرخاء واســتواء الحال وأنه لا ينقصه لتمام سرور من يجيئونه غير الغناء والطرب ، وهذا لا يقوم به غيرأشعب، ولهذا أرسل اليه ، فتأمل أشعب المكان وقال لصديقه : « أهذا هو العمل الشريف والكسب الحلال ! » فانتهره بنان وقال له : « أليس هذا أشرف من أن ندعو أنفسنا الى موائد الغير وشرابهم ؟ انما ندعو الآن النـــاس الى شرابنا نحن وموائدنا وغنائنا ، فماذا فى ذلك ؟ »

فقال له أشعب :

ـ أما نفاك والى مكة ؟ فكيف يجيئك الناس ها هنا ؟

فأجاب أشعب :

ـ الأمر هين . فقد أرسلت الى الناس أقول : « ما يمنعكم من أن تعاودوا ماكنتم فيه ؟ » فقالوا : « وأين بك وأنت فى عرفات ؟ » فقلت لهم : «حمار بدرهم وقد صرتم على الأثر فضـــلا عن النزهة » . ففعلوا . وما زالوا يفعلون ، وتلك حميرهم بالباب !

استطاب أشعب تلك الحياة الجديدة . لقد عرفت يده ثقل الدراهم ، وبطنه الشبع ، وظهره الكساء ، وأصبح الشراب من لزوم عمله . لا يفيق منه الا اليه . وهو يعد شريك بنـــان فى كل ما ملك حتى فى ذلك الخادم الذى يقوم بخدمتهما

ولم يدر أشـــعب أين ينفق ماله ، ولم يشأ أن يركب حمارا بالكراء يحمله فى غـدواته وروحاته من مكة الى عرفات ، ومن عرفات الى مكة . فذهب الى نخاس بسوق الدواب فقال له :

ـ أطلب ما شئت من الثمن ، واعطنى حمارا يليق بى وأليق به

فقال النخاس وهو ينظر الى بذخ أشعب

ــ تبغى حمارا عظيم الهيئة سريع الخطوة ؟..

فقال أشعب :

ــ أبغى حمارا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، اذا خلا له الطريق تدفق ، واذا كثر الزحام ترفق ، ان أقللت علفه صبر ، وان أكثرته شكر ، واذا ركبته هام ، وان ركبه غيرى نام

فنظر اليه النخاس محملقا مشدوها ثم قال له :

ــ يا عبد الله ، اصبر ، فان مسخ الله قاضى مكة حمارا أصبت حاجتك ان شاء الله !

ثم أراه بعد ذلك حمارا حسن المنظر أنيق المظهر ليس به من الخصال ما طلب أشعب ، ولكن فيه من الامارات ما يغرى ، فركبه أشعب من ساعته ونقد الرجل الثمن . ومشى به يتبختر ، مشية لم يعرفها من قبل لا على قدميه ولا على ظهر دابة . وعاد به الى عرفات . فلم يخلطه مع الحمير الواقفة بالباب ازدراء لشأنها وتعظيما لشأنه . فربطه وحده تحت نافذة بنان . ودخل فألفى مجلس الشراب قائما ، والرجال والنساء مختلطين .

وبنان ليأسه من غيبة أشعب فى السوق ، ولما صــــور له السكر من الوهم والخيلاء قد حل محل أشعب فى الغناء. واذا القوم يضجون ، يريدون أن يسكتوه وهو لا يريد أن يسكت ، وما كادوا يرون أشـعب داخلا حتى هللوا فرحين . وأقبل عليه الرجال وأقبلت النساء ، وارتفعت الاصوات تقول له :

ـ أسكت لنا صاحبك !

فأراد أن يسكته فلم يستطع ، وأقبـل الناس على بنان يقولون له :

ـ لقد حضر أشـعب ، فمن أحسن غناء .. أنت أو أشعب ؟

فقال بنان :

ـ أنا شيء ، وأشعب شيء ، أنا أغنى بدرهم ، وأسكت بدينار ، أما أشعب فيغنى بدينار ويسكت بدرهم،فسكوتى اذن أغلى من سكوت أشعب ! فوالله ما أسكت حتى تدفعوا الثمن !

فصاح الناس :

ـ ندفع والله !

وصاحت النساء تطلب الى أشعب أن يغنى فقال لهن :

ـ بثمنه كما قضى زميلى

فقلن :

ـ ندفع والله

فسكت بنان . ونهق الحمار تحت النافذة . فقال أشعب :

ـ هذا والله هو وحده الذى طرب لغناء بنان !

ثم شرب رطلين ورفع عقيرته يغنى بصوته الحسن ويشير الى بنان :

ومغن ان تغنى أورث الندمان هما
أحسن الأقوام حالا فيه من كان أصما

فضحك المجلس وطرب وانهالت على أشعب آيات الحمد والاعجاب ..

مرت الايام وشاعت فى مكة أخبار ذلك المنزل فى عرفات . وأعاد أهل مكة الشكاية الى الوالى أن هذين القوادين لا يفتران عن هذا الفعل ، حتى فسدت أحداث مكة . فأرسل الوالى الى بنان وأشعب فأحضروهما وقد قاما عن العشاء وامتلأ بطناهما بألوان الطعام. وقد شرب

ليلتئذ أشعب حتى جعل يقول لمن حضر :

أسـقنى صرفا حميا تترك الشيخ صبيا
وتريه الغى رشـدا وتريه الرشـد غيا

ورأى خادمهما الشرطى مقبلين ، فأسرع يخبرهما وكانا قد أعدا سردابا يخفيان فيه الناس والحمير اذا وقع خطب من هذه الخطوب . فبادر الى محو آثار ما كانوا فيه . وكبس الدار رجال الوالى . فلم يجدوا غير أشعب وبنان . فقادوهما الى مكة . فذهبا وتركا خادمهما يطلق الناس اذا لاحت ساعة الأمن والسلامة

ودخل الرجال بأشعب على الوالى . فلما رآه قال :

ـ ليس هذا بنان . من أنت أيها الرجل ؟

فغمز أشعب بعينه وقال : « خادمك وعبدك ! »

ولحظ الوالى من حركاته ما جعله يقول لرجاله :

ـ هذا الرجل شارب

فقال أشعب : « لا . . أصلحك الله ! »

فقال الوالى : « استنكهوه ! »

فأقبل الرجال على أشعب فشموا رائحة فمه ثم قالوا :

ـ ان نكهته لا تبين عليه

فقال الوالى : « قيئوه ! »

فصاح أشعب : « وان لم أقئ شرابا فمن يضمن لى عشائى ؟! »

ولم يكد يتم عبارته ، حتى دخل بقية الرجال ببنان . فما ان رأى الوالى بنان حتى عرفه وصاح به :

ـ يا عدو الله ! طردتك من مكة فصرت تفسد فى المشعر الحرام !

فقال بنان : « يكذبون على أصلح الله الأمير »

فأمر الوالى بوضعهما فى الحبس حتى الصباح . وما ان طلع النهار وجلس الوالى فى مجلسه حتى أمر بأصحاب الشكاية فأحضروا . فسألهم الدليل فقالوا : « أصلحك الله ، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر بجميع حمير مكة فترسل بها أمناء الى عرفات ، فيطلقوها فان وقفت كعادتها على منزله دون المنازل ، فنحن غير كاذبين ولا مبطلين »

فقال الوالى : « نعم ، ان فى هذا لدليلا وشاهدا عدلا »

وأمر من ساعته بحمير من حمر مكة التى للكراء ، فأرسلت وأطلقت فاذا هى تصير الى منزل بنان لا تلوى على شىء ، كأنها به عليمة خبيرة . فلما علم الوالى بذلك قال : « ما بعد هذا شىء . جردوه ! »

فأتى الرجال ببنان وجردوه عن ثيابه . فلما نظر الى السياط ، التفت الى الأمير قائلا : « لابد أصلحك الله من ضربى ؟ »

فقال : « نعم يا عدو الله ! »

فقال بنان :

ـ والله ما فى ذلك شىء هو أشد على نفسى ، من أن يشمت بنا أهل العراق ويضحكوا منا ، ويقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير !

فضحك الوالى . وتفكر قليلا ثم قال :

ـ أتحب أن أخلى سبيلك ؟ على شريطة ..

ـ وما هى حفظك الله وأبقاك ؟

ـ أن تغادر من ساعتك أنت وصاحبك هذه البلاد

ذهب بنان وأشعب توا الى عرفات ليحملا متاعهما ويرحلا كما أمر الوالى . فوجدا خادمهما قد سبقهما الى

النية. فوضع الدراهم والملابس وما خف وغلا فى صرر. وتهيأ للهرب . فوثب عليه بنان فضربه ضربا مبرحا . فقال أشعب :

ـ ماذا تصنع ؟ لا تضرب العبد كل هذا الضرب فقد دفعت فيه كما دفعت أنت . وحقى فيه كحقك أنت !

فقال بنان :

ـ انى أضرب نصيبى منه

فأشار أشعب الى الصرر :

ـ وهذه ؟

فقال بنان :

ـ كل شىء يقسم بيننا بالعدل

فقام أشعب الى الخادم فضربه هو أيضا قائلا :

ـ وأنا أضرب حصتى فيه

فانفلت منهما العبد وكان جلدا نشطا ذكيا ، ورفع ثيابه وسلح عليهما وقال : «اقسما هذه على قدر الحصص!»

وولى الأدبار . وبقيا هما مشغولين يومهما بجمع ما استطاعا جمعه وبيع ما قدرا على بيعه ، وخرجا من ذلك النعيم آسفين ...

أشعب في الحمام

عاد أشعب وبنان الى المدينـــة . فدخلاها دخـــول الظافرين،خلفهما عبدهما الهارب ـ وقد راجعاه وأرضياه ـ يحمل لهما الصرر والخيرات.وقد تعاهدا على أن يقيما معا فى منزل واحد لينفقا فيه هذا المال ســـويا . وذهب أشعب الى داره أول الأمر . فرأى امرأته وعياله وترك لهم بعض النفقة . وعرج على الكندى يسأل عن خبره ويضحك من أطواره . ويرى كيف وقع العودة عليه . فسأل عنه فقيل له انه خرج فغبر من بكرة الصباح ليقتضى رجلا خمسة دراهم فضلت دينا عليه . وان هذا ما يشغله منذ أيام طويلة . فهو يخرج من أجل هـــذا الدين من أول النهار فلا يرجع الا مع آخره لبعد الشـــقة وكثرة المماطلة . فجلس أشعب ينتظره حتى رجـــع . فما وقع نظر الكندى على أشعب ببابه حتى امتقع لونه . فابتدره أشعب صائحا :

ـ لا تخش شيئا ، بأبى أنت وأمى !

وقص عليه أخبار الرحلة ، وأراه ما هو فيه من النعمة فأشرق وجه الكندى. وجعل ينظر الى ثوب أشعب النظيف معجبا أول الأمر. غير أنه عاد فهز رأسه وقال متفاخرا:

ـ لا والله . أين هذا من ذلك القميص !

فلم يفطن أشعب وقال :

ـ أى قميص ؟!

وفجأة تذكر الليلة التى سكر فيها الكندى . فضحك حتى دمعت عيناه . فأراد أن يسره ويهون عليه تلك المصيبة التى ما زال يذكرها ، فدعاه الى طعام وشراب فى ذلك المنزل الذى جعله هو وبنان لمنادمتهما وتنعمهما ومضى أشعب فأخبر صديقه وشريكه ليعد وليمة فى ذلك المساء ورأى أشعب أن شعره قد طال وبدنه قد اتسخ من طول السفر

فقال للخادم :

ـ اختر لنا حماما نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء ، وحلاقا خفيف اليد حديد الموسى قليل الفضول

فقاده الغلام الى ما أراد . ودخل أشعب الحمام ، فلم يرعه الا رجل قد دخل على أثره وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه ثم خرج . ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام ويغمزه غمزا يهد الأوصال. ثم عمد الى رأسه يغسله ويرسل عليه الماء . واذا الأول قد عاد فرأى الثانى منهمكا فى العمل فلكمه لكمة كادت تطير أسنانه وقال له :

ـ يا لكع ، مالك ولهذا الرأس وهو لى ؟

فقام اليه المضروب وعطف عليه بلطمة كادت تضيع صوابه ، وقال له :

ـ بل هذا الرأس حقى وملكى وفى يدى

وتلاكما حتى تعبا ، وتجاذبا الأثواب وسارا يتحاكمان الى صاحب الحمام . فقال له الأول :

ـ أنا صاحب هذا الرأس . لأنى لطخت جبينه ووضعت عليه الطين

وقال الثانى :

ـ بل أنا مالكه ، لأنى غسلته ودلكت صاحبه

فقال الحمامى :

ـ ائتونى بالزبون أسأله لأيكما هذا الرأس ؟

فذهب الرجلان الى أشعب وقالا له :

ـ لنا عندك شهادة ، فقم معنا !

وكان أشعب ما زال موضوعا فى مكانه وضعا لم يفهم مما حدث أمامه شيئا ولا أدرك لهذا الشجار معنى، فنهض وسار معهما الى صاحب الحمام . فابتدره الحمامى قائلا :

ـ يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير الحق ، قل لى : هذا الرأس لأيهما ؟

فوقف أشعب دهشا مشدوها لحظة ثم قال :

ـ يا عافاك الله ، هـــذا رأسى أنا ، قد صحبنى طول الطريق من المدينـة الى مكة ومن مكة الى عرفات ، وما شككت أنه لى

فقال له الحمامى منتهرا :

ـ أسكت يا فضولى !

ثم مال الى أحد الخصمين وقال له :

ـ يا هذا . الى متى هذه المنافســة بينكما على رأس صغير الشأن قليل الخطر !

ثم عرج على الخصم الآخر وقال مهونا عليه :

ـ وأنت يا هذا ! هب أنك لم تر رأس هذا التيس !

فقام أشعب من ذلك المكان خجلا. وارتدى ثيابه على عجل وانسل من الحمام ، فوجد خادمه المنتظر بالباب يقول له :

ـ نعيما ان شاء الله !

فهوى فى الحال بكفه على قفا الخادم :

ـ أنعم الله عليك بهذا !

أشعب والحلاق

أسرع أشعب فدخل المنزل وأوصى الغلام أن يأتيه بحلاق ، وأن يحذر هذه المرة ، فلا يحضره فضوليا ولا ثرثارا . فحسبه ما ذهب من الوقت فى غير شىء ، سوى ما رآه من شجار وما لحقه من سباب !

فانصرف وعاد برجل ، دخل فسلم وما هو الا أن دارت يده على وجه أشعب حتى قال له :

ـ جعلت فداك ، هذا وجه لا أعرفه ، فمن أنت ؟

فقال أشعب :

ـ اسمي أشعب

فقال الحلاق :

ـ بأبي أنت وأمي ، هـــذا الاسم لا يجهله أحد في المدينة ! ومن أين قدمت ؟ فاني أرى أثر السفر عليك ؟

فقال أشعب :

ـ من مكة

فقال الحلاق :

ـ حيـــاك الله ، من أرض النعمة والرفاهة ، وبلد رسول الله الكريم . لقد حضرت في شهر رمضان جامعها وقد أشعلت فيه المصابيح وأقيمت التراويح ...

وجعل يقص قصة طويلة لا آخر لها ولا معنى وأشعب يصبر نفسه . وفرغ الحلاق من القصة فعاد يسأل :

ـ وأي شيء أقدمك ؟ أصلحك الله !

فأجاب أشعب :

ـ أقدمني الزمن وتقلباته ، ولكن اذا فرغت سأخبرك بالأمور على وجهها

فقال :

ـ وتعرفنى بالمنازل والسكك التى جئت عليها

فقال أشعب :

ـ نعم

وكان الخادم واقفا على مقربة منهما . فنظر اليه أشعب نظرة قاسية . فدنا منه الغلام وهمس فى أذنه معتذرا :

ـ لن أجد حلاقا يسكت حتى يفرغ !

ومالت الشمس الى الغروب . ولم يفرغ الحلاق من الكلام ، ولم يفرغ مما جاء له ، وأخيرا قال :

ـ لو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت رأسك . فهل ترى أن نبتدىء ؟

فأسرع أشعب قائلا :

ـ وماذا كنت تصنع فيما مضى من الوقت ؟

ونهض فوثب بعيدا . وما ان استوثق أنه أفلت من يد الحلاق ومواسيه ، حتى صاح فى الخادم :

ـ علق هذا الحلاق من العقبين

فهجم عليه الخادم بسواعده القوية وعلقه كما أمر . فقال له أشعب :

ـ جعلت فداك ، سألتنى عن المنـــازل والسكك التى قدمت عليها ، وأنا مشغول فى ذلك الوقت ، وظننت أنك مشغول بعملك ، فأنا أقصـــها عليك الآن ، فاستمع : خرجنا من مكة فى المساء فنزلنا بئرا ذات نخيل فى ظهيرة الغد . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة أسواط . فقال أشعب :

ـ وركبنا عند المساء فنزلنا عين ماء حولها عشب عنـد طلوع النهار . يا غلام ، أوجع !

فضربه الخادم عشرة أخرى . وقال أشعب :

ـ ثم ركبنا ضحى اليـوم وسرنا الى نجع وقد أشرفنا على الأصيل . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة ثالثة . وقال أشعب :

ـ وبعدئذ ركبنا وسرنا حتى وجدنا . . .

فصاح الحلاق مقاطعا :

ـ يا سيدى ، سألتك بالله الى أين تريد أن تبلغ ؟

فقال أشعب :

ـ الى المدينة

ـ لست تبلغها حتى تقتلنى

فقال أشعب :

ـ أتركك على أن لا تعود ؟

فصاح الحلاق :

ـ والله لا أعود أبدا

فتركه. وكان المساء قد أقبل. وحضر بنان والكندى. وأبصر الخادم يحل وثاق الحلاق. فسألا فأخبرهما أشعب الخبر . فقال الكندى :

ـ وددت أنك بلغت به الى أن تأتى على نفسه !

على الخوان

جلس الجميع يتحادثون ســـاعة قبل أن يوضع بينهم الخوان ويقدم الشراب . وحلف أشعب على الحلاق أن لا يبرح حتى يحضر معهم العشاء . فقد كفاه من التأديب ما أكله من يد العبد . وأخذ الـكندى يجول بنظره فى أنحـــاء المكان ويعجب بالرياش . ولمحه بنان فقـــال له باسما :

ـ أراك شديد العجب !

فقال الكندى :

ـ اى والله نعم

ثم أردف سائلا :

ـ ومتى كان الرحيل ؟ قبل أن أهدى أشعب القميص بكم يوم ؟

فلم يفطن بنان وقال :

ـ أى قميص ؟

فابتسم أشعب وتذكر عندئذ أمرا كان يود أن يسأل الكندى فيه . فأقبل عليه يقول له :

ـ بالله الا أخبرتنا : انا نراك لأول مرة تصنع شيئا الفساد فيه ظاهر والفائدة لك فيه غير مرجوة . أخبرنا عن مضيك كل يوم الى رجل فى آخر السوق لتقتضى منه خمسة دراهم دينا عليه . . أهو حزم منك ؟ لا . انما الحزم أن يتشدد الانسان فى غير تضييع

فالتفت الكندى اليه قائلا :

ـ وما هو وجه التضييع ؟

فقال أشعب :

ـ وجوه التضييع كثيرة . فواحدة : انا لا نأمن عليك انتقاض بدنك وقد خلا ما خلا من سنك ، وأن تعتل ، فتدع التقاضى الكثير بسبب هذا القليل أو تتشاغل بالبعيد عن القريب ، وثانية : انك أن تجهد هذا الجهد فلابد لك من أن تزداد فى العشـاء ان كنت ممن يتعشى أو تتعشى ان كنت ممن لا يتعشى . وهذا اذا اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم. وبعد فانك تحتاج أن تشق وسط السوق وعليك ثيابك ، والحمولة تستقبلك ، فمن ههنا نترة ومن ههنا جذبة ، فاذا الثوب قد أودى ، ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق ، وساق سراويلك تتسخ وتبلى ، ولعلك أن تعثر فى نعلك فتقدها قدا ، ولعلك تهرتها هرتا من كثرة الذهاب والاياب فى سبيل هذا الدين الزهيد . منذ متى وأنت تذهب للمطالبة والاقتضاء ؟

فقال الكندى :

ـ منذ يومين من تاريخ الليـلة التى أهديت فيها لك القميص

فأخفى أشعب ابتسامة ومضى يقول :

ـ مضى اذن وقت طويل وأنت على هذه المشقة تتكبد

كل ما ذكرنا لك من الخسائر ، ولا تجنى اذا جنيت الا خمســة دراهم . ولما كنا نثق دائما بحكمتك فى كل تصرفاتك . فقد أعيتنا والله هــذه المشكلة . وأحببنا أن نسألك فيها

فتنحنح الكندى وقال :

ـ أما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فان الذى أخاف على بدنى منه هو الدعة وقلة الحركة ، وهل رأيتم أصح أبدانا من الحمالين والطوافين . ولربما أقمت فى المنزل بعض الأمر فأكثر الصعود والنزول خوفا من قلة الحركة. وأما التشاغل بالبعيد عن القريب فأنا لا أعرض للبعيــد حتى أفرغ من القريب ، وأما ما ذكرتم من الزيادة فى الطعام فقد أيقنت نفسى واطمأن قلبى على أنه ليس لنفسى عندى الا مالها ، وانهـا ان حاسبتنى أيام التعب حاسبتها أيام الراحة. وأما ما ذكرتم من تلقى الحمولة ومن مزاحمة أهل السوق ومن النتر والجذب فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم أهل السوق لصلاتهم، ثم يكون رجوعى على ظهــر الســوق ، وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل فانى من لدن خــروجى من منزلى الى أن

أقترب من باب صاحبي فانما نعلى فى يدى وسراويلى فى كمى ، فاذا صرت اليه لبستهما ، فاذا خرجت من عنده خلعتهما،فهما فى ذلك اليوم أودع أبدانا وأحسن حالا. بقى الآن لكم مما ذكرتم شيء ؟؟

فقالوا جميعا فى عجلة :

ـ لا

فأردف الكندى باسما :

ـ ههنا واحدة تفى بجميع ما ذكرتم

فقالوا جميعا فى لهفة :

ـ ما هى ؟

فقال الكندى :

ـ اذا علم المدين القريب ومن لى عليه ألوف الدنانير شدة مطالبتى للمدين البعيد ومن ليس لى عليه الا الدراهم، أتى بحقى كاملا ولم يطمع نفسه فى مالى . فهـذا تدبير يجمع لى الى رجوع مالى طول راحـة بدنى وليس من الحكمة أن أدع شيئا من دين يطمع فى فضلة ما يبقى على الغرماء

وسكت . فقالوا بأجمعهم فى صيحة اعجاب :

ـ لا والله لا سألناك عن مشكلة أبدا

وجاء وقت الطعام . ووضع الغـلام الخوان ، وقدم « مضـيرة » من لحم الجدى واللبن الحامض والتوابل والأبزار ، تثنى على كرم أشـعب وبنان وتشهد لهما بالسعة والرخاء ، فى قصعة عظيمة يزل عنها الطرف بهاء ورواء ، فما أخـذت من المائدة مكانها ، حتى قام الحلاق على قدميه ساخطا لاعنا ، يسب آكلها وطابخها ، فظنه الحاضرون يمزح،فاذا هو جاد فى الكلام واذا هو يتنحى بعيدا تنحى السليم عن الأجرب ، فرابهم أمرها وخافوا أن يمدوا اليها يدا،فرفعوها فارتفعت معها قلوبهم وسافرت خلفها عيونهم .وتحلب لها فم الكندى وتلمظت لها شفتاه، ولكنه أذعن على مضض ، وأقبل كما أقبل الآخرون على الحلاق يسألونه عن أمرها فتنهد وقال :

ـ قصتى معها أطول من مصيبتى فيها !

وسكت ، فصاحوا به :

ـ تكلم !

فتردد ثم قال :

ـ أخاف لو حدثتكم بها ألا آمن من غضبكم واضاعة وقتكم

فزاد بذلك رغبتهم فى الاستطلاع فقالوا له جميعا :

ـ تحدث

فجلس وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال :

ـ منذ سنوات ثلاث دعانى حلاق من اخوانى الحلاقين، ترك الحرفة بعد أن أثرى وجمع الاموال ، الى أكلة « مضيرة » . ولزمنى ملازمة الظل الى أن تركت حانوتى وزبائنى وأجبته اليها ، وقمنا . فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ويفديها بمهجته ويصف حذقها فى صناعة المضيرة وتأنقها فى طبخها ، ويقول :

ـ يا صاحبى لو رأيتها والخرقة فى وسطها وهى تدور فى المطبخ بين القدور تنفث بفمها النار وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر فى ذلك الوجه الجميل ، لرأيت منظرا تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، ولاسيما اذا كانت من طينته ، وهى ابنة عمى لحا . مدينتها مدينتى وأرومتها أرومتى . ولكنها أوسع

منى صدرا ، وأحسن خلقا

ومضى يحدثنى بصفات زوجته حتى انتهينا الى الجهة التى يقيم فيها . فقال :

ـ يا صاحبى ترى هذه الجهة هى أشرف موقع بالمدينة، يتنافس الأخيـــار فى نزولها ولا يقطنها غير كل عظيم وانما المرء بالجار. ودارى فى وسطها كالنقطة فى الدائرة انظر الى دارى وقل لى كم تقدر ثمنها . قله تخمينا

قلت :

ـ الكثير

فقال :

ـ يا سبحان الله ! تقول الكثير فقط ؟

وتنهد ثم قال :

ـ سبحان من يعلم الأشياء !

وانتهينا الى باب داره فقال :

ـ كم تقدر يا صاحبى ما أنفقت على هذا الباب ؟ أنفقت والله عليه فوق الطاقة ، كيف ترى صنعه وشكله ؟ أرأيت بالله نظيره ؟ انظر الى دقائق الصنعة فيه ، وتأمل حسن

تعريجه فكأنما خط بالبركار ، ثم هذه الحلقة فيـه لقد اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير . وكم فيها من النحاس يا صاحبى ! فيها ستة أرطال ! بالله دورها ثم انقرها وأبصرها

وقرعنا الباب ودخلنا الدهليز . فقال :

ـ عمرك الله يا دار ولا خربك يا جدار . تأمل بالله المعارج ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلني كيف حصلت عليها ، وكم من حيلة احتلت لها . فلقد كان لى جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه الدار ، وله من المال ما لا يسعه الخزن . فمات رحمه الله وخلف خلفا أتلف المال بين الخمر والزمر ، وخشيت أن تذهب الدار فيما ذهب . ويفوتنى شراؤها فأتقطع عليها حسرات الى يوم الممات ، فاحتلت حتى أقرضت صاحب الدار ما لا احتاج اليه ، وتغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق فسألته أن يجعل داره رهينة لدى ، ففعل . ثم صبرت عليه الى أن أفلس وآلت الى الدار بثمن بخس . وأنا بحمد الله محظوظ . وحسبك يا صاحبى أنى كنت منذ ليال نائما فى البيت مع من فيـه اذ قرع علينا الباب .

فقلت : من الطارق ؟ . فاذا امرأة معها عقد لؤلؤ تعرضه للبيع فأخذته منها اخذة خلس واشتريته بثمن زهيد وسيكون له ربح وافر بعون الله تعالى . وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة حظى . والسعادة تنبط الماء من الحجارة . الله أكبر ، لا ينبئك أصدق من نفسك . ثم انى اشتريت هذا الحصير فى المناداة وقد أخرج من دور آل ثراء ، وكنت أطلب مثله منذ زمن طويل فلا أجد . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه . وان كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى ، فهو عمله وله ابن يخلفه الآن فى حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر الا عنده ، فبحياتى لا اشتريت الحصر الا من دكانه . فالمؤمن ناصح لاخوانه ونعود الى حديث المضيرة فقد حان وقت الظهر . يا غلام الطست والماء

فقلت :

ـ الله أكبر ، ربما قرب الفرج

وتقدم خادمه . فقال :

ـ ترى هذا الغلام ؟ انه رومى الأصل ، عراقى

النشء . تقدم يا غلام ، واحسر عن رأسك ، وانض عن ذراعك ، وأقبل وأدبر

ففعل الخادم ذلك . وقال صاحب الدار :

ـ بالله سلني من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو معن ابن النخاس . يا غلام ضع الطست وهات الأبريق

فوضعه الغلام وأخذه المضيف وقلبه بين يديه وأدار فيه النظر ثم نقره وقال :

ـ انظر الى هذا النحاس الاصفر كأنه قطعة من الذهب، نحاس الشام وصنعة العراق . تأمل حسنه وسلني متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة . يا غلام . . الأبريق!

فقدمه . وأخذه رب البيت فقلبه بين يديه وقال :

ـ أنبوبه منه، لا يصلح هذا الأبريق الا لهذا الطست، يا غلام أرسل الماء ، فقد حان وقت الطعام ! بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ، أزرق كعين السنور . وكأنه لسان الشمعة في صفاء الدمعة . وهذا المنديل سلني عن قصته . فهو نسج جرجان ، وقع الى فاشتريته . فاتخذت امرأتي بعضه سراويل واتخذت بعضه منديلا . دخل في سراويلها عشرون ذراعا . وانتزعت انتزاعا من يدها هذا

القدر وأسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه. فادخـــرته للظراف من الأضياف أمثالك . يا غـلام ، الخوان والقصاع والطعام ، فقد كثر الكلام

فأتى العبـد بالخوان ، وقلبه صاحب البيت ، ونقره ، وعجمه بأسنانه ، وقال :

ـ عمر الله بغداد فما أجود متاعها . تأمل بالله هـــذا الخوان وانظر الى خفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله

فقلت له :

ـ هذا الشكل ، فمتى الأكل ؟

فقال :

ـ الآن . عجل يا غلام بالأكل، لكن الخوان قوائمه منه ...

فقنطت وقلت فى نفسى :

ـ قد بقى الخبز وآلاته وصـــفاته والحنطة مـن أين اشتراها وكيف اكترى لها حمالا وفى أى رحى طحن وكيف عجـن وخبز ، وبقى الحطب ومتى جلب وكيف صففف وجفف . وبقى الخباز ووصفه والدقيق والخمير وشرحه ، بقى البقـل وكيف قطف ونظف ، وبقيت

المضيرة كيف اشترى لحمها ووفى شحمها ونصب قدرها ودقت أبزارها حتى أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهـذا خطب يطم . فقمت

فقال : « أين تريد يا صاحبي ؟ »

فقلت : « حاجة أقضيها »

فقال :

ـ تريد كنيفـا أحسن من مصيف الأمير ويزرى بمقصورة الوزير،قد سطح سقفه وفرشت أرضه بالمرمر، يمشى على أرضه الذباب فيزلق ، وعليـه باب من ساج وعاج ، مزدوجين أجمل ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه ؟

فقلت له : «كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحساب » . وخرجت من الدار وجعلت أعدو ، وهو يتبعنى ويصيح بى :

ـ يا أبا الفرج . . . المضيرة !

وظن الصبيان فى الطريق أن المضيرة لقب لى،فصاحوا صياحه فضجرت ورميت أحدهم بحجر ، فأصاب الحجر عمامة رجل عابر وغاص فى هامته . فأخـذت من صفع



« وجعلت أعدو ، وهو يتبعني ويصيح بي : يا أبا الفرج ... المضيرة ! »

الناس بما طاب وخبث. وضربت والله حتى نسيت اسمى. ثم حشرت الى الحبس فأقمت عامين فى ذلك النحس. وخرجت فنذرت أن لا آكل مضيرة طول حياتى. فهل أنا فى ذا يا أسيادى واخوانى ظالم ؟! »

▭

وسكت الحلاق. ونظر الى الجالسين يمنة ويسرة فوجدهم ينفخون ويتلمظون لا من الجوع، بل من الغيظ. ولم يجدوا كلاما يقولونه له

ولم ير أشعب جوابا يجيب به غير الاشارة الى العبد والصياح فيه قائلا : « علق هذا الحلاق من العقبين، الى أن نفرغ من العشاء ! »

وأرجعوا « المضيرة »، فعادت اليهم باردة منكمشة كالعجوز الحيزبون، فأكلوها وقد ذهب رواؤها ومضت لذتها فجعل الكندى يمضغ ويقول لأشعب :

ـ ألم أقل لك : وددت أنك بلغت بهذا الحلاق الى أن تأتى على نفسه ؟

حيلة شيطانية

لبث أشعب وبنان على هذه الحال أياما ينفقان مما عندهما على طيب الطعام وجيد الشراب ، الى أن أوشك ما جمعاه أن ينضب ، ولمحا شبح الفاقة والجوع يقترب ، فحدثتهما النفس أن يصنعا ههنا ما صنعاه في عرفات . ولكن على نسق آخر ، خوفا من سوء العاقبة . فبعث أشعب الى الجارية « رشأ » فحضرت . وأعد هو وبنان منزلا فى زقاق العطارين يشرف على السوق . وأوصيا الجارية أن تخطر بقدها المائس أمام المسجد اذا اجتمع الناس لصلاة العصر . فمضت وعلى وجهها خمار أسود تزهر من تحته عيناها كأنهما النجوم . فما كادت تسير خطوات حتى سمعت خلفها من يهمس فى أذنها :

قال للمليحة فى الخمار الأسود :

ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟

قد كان شمر للصلاة ثيابه

حتى خطرت له بباب المسجد

ردى عليـه صلاته وصيامه
لا تقتليه ، بحـق دين محمـد !

فالتفتت ، فرأت رجـلا ليس من أهل البلد نظيف الهيئة ، وقور الطلعة يحد اليها النظر . فقالت له :

ـ اتبعنى

فقال لها : « ان شريطتى الحلال »

فقالت له :

ـ قبحك الله ، ومن يريدك على حرام ؟

فخجل الرجـل . وغلبته نفسه عـلى رأيه فتبعها . ومشيا حتى دخلا الزقاق وبلغا المنزل . وصعدت الجارية درجة وقالت للرجل :

ـ اصعد

فصعد . فقالت له :

ـ ان لى وجها أحسن من العافية ، مع صوت كصوت « ابن سريج » وترنم « معبد » وتيه « ابن عائشة » أجمع لك هذا كله فى بدن واحد بأشقر سليم

فقال لها :

ـ وما أشقر سليم ؟

فقالت :

ـ بدينار واحد ، يومك وليلتك . فاذا أقمت جعلت الدينار صداقا وتزويجا صحيحا

فقال الرجل :

ـ لك ذلك اذا جمع لى ما ذكرت

فأجلسته فى صـدر الدار وخلعت خمارها . ورأى الرجل جمالها . فذهب عقله . وقامت الجارية فقال لها:

ـ الى أين جعلت فداك ؟

ـ ألبس وأتهيأ . .

فصاح الرجل :

ـ بالله لا تمسى غمرا ولا طيبـا ، فحسبك بدلالك وعطرك . . .

فابتسمت له ابتسامة أجهزت عليه . وذهبت . وجاء الغلام ، فحيا الرجل أجمل تحية ، وأسر له فى أذنه :

ـ أأخبرتك شريطتها ؟

فقال الرجل :

ـ لا والله . ما شريطتها ؟

فقال الخادم :

ـ لعلها نسيت تخبرك . هى والله أفتك من « عمرو ابن معديكرب » وأشجع من « ربيعة بن مكدم » ولست بواصل اليها حتى تسكر وتغلب على عقلها ، فاذا بلغت ذلك الحال ففيها مطمع

فقال الرجل :

ـ ما أهون ذلك وأسهله !

فأردف الخادم :

ـ ثم شىء آخر

ـ ما هو ؟

ـ اعلم أنك لن تصل اليها حتى تتجرد لها وتراك مجردا مقبلا مدبرا

فقال الرجل :

ـ وهذا أيضا أفعله

وتركه الغلام ومضى . وأقبلت الجارية تموج ظرفا وتميس لطفا فقالت :

ـ هلم دينارك !

فأخرج الرجل دينارا نبذه اليها فصفقت فأجابها العبد. فقالت له :

ـ قل لأبي الحسن وأبي الحسين هلما الساعة !

ومضى قليل. فاذا شيخان خاضبان نبيلان ، هما أشعب وبنان ، قد أقبلا فصعدا . فقصت الجارية عليهما القصة. وغمزت لهما بعينها غمزة خفيفة لم يلحظها الرجل . فقام أحدهما فخطب وأجاب الآخر . ودعيا الرجل فأقر بالتزويج وأقرت الجارية. ودعا الشاهدان بالبركة ، ثم نهضا وخرجا واستحيى الرجل أن يحمل المرأة شيئا من المؤونة فأخرج دينارا آخر دفعه اليها وقال :

ـ اجعلي هذا لطيبك

فقالت له :

ـ يا أخي ، لست ممن يمس طيبا لرجل ، انما أتطيب لنفسي اذا خلوت

فقال لها :

ـ فاجعليه اذن لعشائنا الليلة

قالت :

ـ أما هذا فنعم

ونهضت فأمرت باصلاح ما يحتاج اليه . ثم عادت وأقبل المساء ، فدعت بالخوان والنبيذ . فتعشيا وشربا . وأمسكت بالعود واندفعت تغنى :

راحوا يصيدون الظباء واننى
لأرى تصيدها على حراما
أعزز على بأن أروع شبهها
أو أن تذوق على يدى حماما

فكاد الرجل يجن سرورا وطربا . وقال لها :

ـ جعلت فداك ، من يغنى هذا ؟

قالت :

ـ اشترك فيه جماعة ، هو لمعبد ، وتغنى به ابن سريج وابن عائشة

وجعل الرجل يحتال لتدنو منه فتأبى عليه . ثم غنت بصوت لم يفهمه للشقاء الذى كتب عليه :

كأنى بالمجرد قد علته
نعال القوم أو خشب السوارى

فقال لها :

ـ جعلت فداك ، ما أفهم هذا البيت ، ولا أحسبه مما يتغنى به !

قالت :

ـ أنا أول من تغنى به

فقال :

ـ انما هو بيت عابر لا ثانى له ؟

قالت :

ـ معه آخر ليس هذا وقته . هو آخر ما أتغنى به

فسكت الرجـل . وجعل لا ينازعها فى شىء اجلالا لها ، الى أن أذنت العشاء ، فوضعت عودها . فقام فصلى العشاء ، وما يدرى كم صلى عجلة وشـوقا . وفرغ من صلاته فأقبل عليها يقول :

ـ تأذنين جعلت فداك فى الدنو منك ؟

قالت :

ـ تجرد !

وأشارت الى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد،فكاد الرجل

يشق ثيابه عجلة للخروج منها . فتجرد ، وقام بين يديها . فقالت له :

ـ امض الى زاوية البيت ، وأقبل وأدبر ، حتى أراك مقبلا ومدبرا !

واذا فى زاوية البيت حصير فى الغرفة على الطريق فخطر الرجل عليه . واذا تحته خرق الى السوق . واذا الرجل يجد نفسه فى السوق مجردا عاريا كما ولدته أمه واذا الشيخان الشاهدان « أشعب وبنان » قد أعدا نعالهما على قفاه ، واستعانا بأهل السوق . فما أبقوا فيه عظما صحيحا . وبينما الرجل يضرب بنعال مخصوفة وأيد مشدودة،اذا صوت تغنى به الجارية من فوق البيت:

ولو علم المجرد ما أردنا
لحاربنا المجرد بالصحارى

فقال الرجل فى نفسه :

ـ هذا والله وقت هذا البيت !

□

أمعن أشعب وبنان فى هذا السبيل بمثل هذه الاساليب،

حتى ضجت الناس وعمت الشكوى . وبلغ الأمر والى المدينة وكان شديد الورع ، صارم الخلق ، عبوس الوجه. فأرسل فى طلب هذين المفسدين ، وأمر بهما للفور فجردا من ثيابهما وضربا ثلاثين سوطا . وأمر بأموالهما الحرام فمضت الى بيت المال

وتحمل أشعب وبنان الضرب . ولكنهما لم يتحملا كارثة ذهاب المال . فصاح أشعب يستأذن على الوالى فأذن له . فبكى بين يديه وتباكى وقال :

ـ أصلحك الله ! أنجرد من ثيابنا ومن مالنا فى يوم واحد ؟

فقال له الوالى :

ـ يا عدو الله ! لقدكنتما تجردان الناس من هذا وذاك فى ليلة واحدة

ورأى أشعب أن لا حيلة له مع هذا الوالى الا أن يضحكه ، فلعله ان ضحك عفا. فجعل يقص عليه طريف النوادر والوالى فى اطراقه وتقطيبه وعبوسه لا يعبر وجهه خيال ابتسامة . وسكت أشعب قانطا

فرفع الوالى رأسه وقال له :

ـ لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان أولى بك

فقال أشعب : « قد فعلت »

فقال له الوالى : « أسمعنى ما حفظت من الحديث »

فتنحنح أشعب ثم قال :

ـ حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

ـ من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصا مخلصا

فقال الوالى :

ـ هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟

فحار أشعب وتفكر لحظة ثم قال :

ـ نسى نافع واحدة

فقال الوالى : « والأخرى ؟ »

فقال أشعب :

ـ والأخرى .. نسيتها أنا

فلم يجب الوالى . ولم يزد على أن أمر بأشعب فضرب ثلاثين أخرى ...

فى العرس

جعل أشعب وبنان يطوفان فى الاسواق متجردين من مالهما وقد أعياهما الجوع وضاقت بهما الحياة . ولم يبق لهما مما سلف ، غير ذكرى تعاود أشعب فى كل ليلة . فيرفع عقيرته صائحا :

شربنا كؤوس السعد حتى كأننا
ملوك لهم فى كل ناحية وفر
فلما اعتلت شمس النهار رأيتنا
تخلى الغنى عنا وعاودنا الفقر

وأتعبتهما كثرة المشى ، فقال بنان :

ـ مالنا نمشى فى غير حاجة ؟

فقال أشعب :

ـ صدقت. والله لقد أنسانا العز وصايا أساتذة التطفيل رحمهم الله ، لقد جاء فى بعض نصائحهم الذهبية : « لا تمش الى موضع لا تمضغ فيه شيئا »

فقال بنان :

ـ لو عرفنا موضع المضغ ...

فأجاب أشعب :

ـ لمشينا اليه دهرا

وتنهد الرجلان ، ومضيا فى السير. واذا الفرج يلوح لهما عن كثب فى هيئة عرس فى طرف المدينة ، قد نمت أنواره عن عظم شأنه فصاحا معا صيحة واحدة . وركضا اليه . ولكنهما وجدا دونهما بابا قد ارتج وبوابا وقاحا غليظ الطبع يسب من لا يعرف من القادمين،ويدفع بيده فى صدورهم فعلما أن لا سبيل الى الدخول الا بالحيلة. فانصرف كل منهما يدبر لنفسه أمرا

وانطلق أشعب من ساعته يسأل عن صاحب العرس ان كان له ولد غائب أو شريك فى سفر ، فعلم أن له ولدا فى اليمن هو أخ للعروس فأخذ فى الحال ورقة بيضاء فطواها وختمها وليس فى بطنها شىء وجعل العنوان « من الأخ الى العروس » ثم أقبل متدللا . فقعقع الباب قعقعة شديدة ، فقال له البواب :

ـ من أنت ؟

فقال أشعب :

ـ أنا رسول من عند أخي العروس

ففتح له الباب . وتلقاه صاحب البيت فرحا قائلا له :

ـ كيف فارقت ولدى ؟

فقال أشعب :

ـ بأحسن حال ، وما أقدر أن أكلمك من الجوع !

فأمر صاحب العرس بالطعام فقدم الى أشعب ، فجعل يأكل . ولم يطق صاحب الدار انتظارا فقال :

ـ أما معك رسالة ؟

فقال أشعب :

ـ نعم

ودفع اليه بالورقة فأخذها الرجل فوجد خاتمها طريا فقال :

ـ أرى الطين طريا ؟

فأجاب أشعب وفمه منتفخ بالطعام :

ـ نعم ، وأعجب من هذا أنه ليس فى بطن الرسالة ولا حرف واحد لأن ولدك من العجلة لم يكتب فيه شيئا

فنظر اليه صاحب العرس شزرا وقال له :

ـ أطفيلى أنت ؟

فأجاب أشعب وهو يمضغ :

ـ نعم ، أصلحك الله !

فقال الرجل :

ـ كل ، لا هناك الله !

▭

أما بنان فقد حار ماذا يصنع للدخـول . ثم تذكر أن في يده خاتما بقى له من أيام العز . فذهب من فوره الى بقال فرهنه عنده على عشرة أقداح وجاء الى باب العرس يصيح :

ـ يا بواب افتح لى !

ـ من أنت ؟

ـ أراك لا تعرفنى . أنا الذى بعثونى أشـــترى لهم الأقداح

ففتح له البواب . فدخل بنان فأكل هو أيضا وشرب

مع القوم ، حتى فرغ فقام وأخذ الاقداح وخرج فردها على البقال واسترد خاتمه

□

لم تكن الحيلة تنقص أشعب وبنان انما الذى كان ينقصهما هو العلم بموضع الولائم والأعراس فان دون ذلك البحث الطويل والجهد الكثير ولم يفتح الله عليهما بحل لهذه المعضلة . الى أن خطر على بال بنان يوما خاطر فقال لصاحبه :

ـ لا يعرف مكان الولائم والأعراس غير غلمان الأزقة والطرق . فانك لتراهم منتشرين فى كل مكان، ولهم علم بكل شأن . ولعل من بين عيالك من تشرد مثلهم . فأوص الأشد من أولادك أن يأتينا بالاخبار

وكان الحق فيما قال ، اذ لم يمض يوم حتى جاء ابن أشعب يجرى،فأخبرهما أنه مر بباب قوم عندهم وليمة . فأسرعوا ثلاثتهم الى تلك الدار ودخلوا . واذا صاحب البيت قد وضع سلما ، فكلما رأى شخصا لا يعرفه قال له : « اصعد يا أبى ». فصعدبنان وأشعب وابنه ، فوجدوا أنفسهم فى غرفة مفروشة. وتوالى الصعود الى هذه الغرفة

حتى وافى فيها ثلاثة عشر طفيليا . ثم رفع السلم ، ووضعت الموائد فى أسفل الدار . وبقى أشعب ومن معه فى العلو ينظرون متحيرين . فقال بعضهم :

ـ ما مر بنا مثل هذا قط

فنظر أشعب الى الحاضرين مليا وقال :

ـ يا فتيان ما صناعتكم ؟

فقالوا :

ـ الطفيلية

فقال لهم :

ـ ما عندكم فى هذا الأمر الذى وقعنا فيه ؟

فأجابوا :

ـ ما عندنا فيه حيلة !

فقال لهم :

ـ واذا احتلت لكم حتى تأكلوا وتنزلوا ، تقرون لى أنى أعلمكم بالتطفيل ؟

فنظروا اليه وقالوا :

ـ ومن تكون أنت بالله ؟

فقال :

ـ أنا أشعب !

فقالوا للفور :

ـ قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا

فقام أشعب ، وأطل على صاحب الدار وضيوفه يأكلون ، فصاح به :

ـ يا صاحب البيت !

فرفع الرجل رأسه قائلا :

ـ مالك ؟

فقال له أشعب :

ـ أيهما أحب اليك ، تصعد الينا بخوان كبير نأكل وننزل ، أو أرمى بنفسى رأسيا من هذا العلو فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتما ؟؟

ثم جعل أشعب يجر سراويله ، كأنه يريد أن يعدو ويرمى بنفسه . فجعل صاحب الدار يقول :

ـ اصبر ، ويلك ، لا تفعل !

ثم أصعد اليهم خوانا ، انقضوا عليه انقضاض جوارح الطير . . .

وجعل ابن أشعب يأكل ثم يشرب ثم يأكل . حتى لم يبق شيء يؤكل فقاموا . وعند ذاك . . . انتحى أشعب بابنه ناحية ولطمه هامسا :

ـ لو جعلت مكان كأس الماء الذى شربته لقيمات . .

فأجاب الابن من الفور :

ـ ان كأس الماء يوسع محلا للقم

فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة ، ثم صفعة ثانية وقال :

ـ لم لم تنبهنى الى ذلك قبل جلوسنا الى الخوان ؟ !

▭

منذ ذلك اليوم جعل نفر من أولئك الطفيليين الثلاثة عشر يختلفون الى أشعب ، ويجلسون حوله فى طرف من أطراف السوق ، يستمعون الى حديثه ويتلقون نصحه . ولزمه واحد من هؤلاء ملازمة الظل . وجعل أحيانا يحمل الى أشعب بعض الطعام ويتلطف له ويترضاه ليأخذ عنه بعض أساليب تلك الصناعة ، وكان يلح عليه

الحاحا ينم عن شدة تعلقه بالتطفيل ، وجاء هذا التلميذ الى أستاذه ذلك المساء بطبق فيه تمر وقعد بين يديه كما يقعد كل يوم قائلا له :

ـ انصحنى !

فوضع أشعب الطبق فى حجره وطفق يأكل .. ثم تنحنح وقال :

ـ اذا دخلت عرسا ، فلا تلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، وان كان العرس كثير الزحام فلتمض ، ولا تنظر فى عيون الناس ، ليظن أهل المرأة ، أنك من أهل الرجل ، ويظن أهل الرجل أنك من أهل المرأة ، فان كان البواب غليظا وقاحا فتبدأ به وتأمره وتنهاه من غير أن تعنف عليه ولكن بين النصيحة والادلال ...

وسكت أشعب واشتغل بالتمر،فقال التلميذ : زدنى ! فقال :

ـ اذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط ، وتزود منه زاد من لا يراه أبدا

ـ زدنى !

ـ واذا دعيت الى وليمة ان شاء الله ، فاياك ثم اياك أن

تأخر الى آخر الوقت ، بل استخر الله وكن من السبق وأول من يوافى ، واعلم أنه ليس يجيء فى أول الاوقات الا جلة الناس وسراتهم ، فقعودك مع مثل هؤلاء فائدة ، وأنت معهم آمن مطمئن مسرور ، تسمع كل حـديث حسن وخبر ظريف ، وأنت ريح البدن واسع الموضع طيب المكان ، فالزم هذه الطبقة لا يزايل سوادك بياضهم فتهلك ، فهؤلاء هم الذين يعـرفون حقك ويكرمونك ويجلونك ويحلفون بحيـاتك وتعـرف السرور فى وجوههم ، فصلوات الله على هؤلاء وعلى من ولدهم !..

وقعودك على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة ، اعلم يا مغفل أنك أول من يغسـل يده ، والخوان بين يديك ، وأول القنينة أنت تشربه ، والبقل الجيد يوضع قدامك ، وأول من يتبخر أنت . ثم انك تأكل رؤوس القدور ، وكل شيء كثير ، والقدور ملأى ، والماء بارد ، والخباز نشيط ورب المنزل فرح مسرور ، وكل شيء من أمرك مستور ، أما اذا تأخرت أو تكاسلت الى آخر الوقت فقد عطبت وهلكت . فانك تصادف الطعام باردا وهو فضلات القدور

والرقاق بقايا عجين،فقد استعملوا الجيد،والماء سخنا ، وصاحب الوليمة ضجرا متبرما . ذلك أنه لا يقعد على آخر مائدة الا ضعفى الجيران ومساكين المكان والقوام . فاذا قال لهم صاحب الدار : « قوموا سارعوا الى الخوان » نهضوا مزدحمين فانبسطوا فى ميدان المضغ ورفعوا قناع الحشمة وألصقوا الاكتاف بالاكتاف كأنهم بنيان مرصوص، يأكلون ميمنة وميسرة ، وتدور أيديهم على الخوان شرقيا وغربيا وتسمع للقم فى حلوقهم معمعة . فان قدم لهم جداء وحملان فانما يقدم الجدى أضلاعا بلا لحم ، فوقه جلد وحوله « خس » و « هندبا » كأنه كوخ ناطور قد وقع خشبه وبقى القصب قائما . فماذا يكون حال من يأكل مع هؤلاء ؟ انه يخرج من العرس وما معه من العرس الا شم الطعام وتمشيش العظام ...

وسكت أشعب . فقال صاحبه :

ـ زدنى

فقال أشعب :

ـ واذا قمت من المائدة وقد تغديت ، فاقعد فى وسط الدار يضربك الهواء ، وادع بالشراب ، فان أتوك بنبيذ

فهو أحب الى، رطلا أو رطلين، ولا تصب فيه ماء . وان حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تقعد فى الصـــدر فان القعود فى الصدر قعود مغن أو مخرف . وان كان فى البيت فاكهة كثـــيرة فاجذب منها اليك ، اذ لا تأمن أن تذهب وتبقى أنت بلا شىء . ولا تكن أنت الساقى. وكن ذنبا ولا تكن رأسا. وان كان فى المجلس مغنية أو جارية حسنة الوجه فاتق الله فى نفسك ولا تولع بواحدة منهما والزم العافية. واذا دار النبيذ فى الاقداح فاياك أن تسكر وأن يرى القـــوم منك زلة أو كلمة غلط فتخرج وقد انهتك سترك عندهم . فانك ان خلطت وولعت ومزحت فانما هو صفع كله وعداوة بين جيرانك . اشرب خمسة أقداح أو ستة أقداح أو سبعة أقداح ولا تسكر . فان خشيت على نفسك فقم وأنت صحيح وعقلك معك. وانما شرحت لك كل هذا تفصيلا رغبة فى اسداء النصيحة ، فافهم تعلم ، وتعلم بأدب . متعك الله بسعة الصدر وطيب الأكل والصبر على المضغ ، انها دعوة مغفول عنها

وسكت أشـعب . وسكت تلميذه . واذا جماعة من أصحابهما الطفيليين قد أقبلوا يتصـــايحون مهللين فعلم

أشعب أنها وليمة . فوثب على قدميه وقام التلميذ لقيامه. وصاح أشعب فى الجماعة :

ـ أين ؟

فقالوا :

ـ اتبعنا

فشمر عن ساقيه وقال لهم :

ـ بل اتبعونى أنتم !

فساروا فى أثره . ومشى هو على رأسهم ، ينظر الى السماء ويدعو الله قائلا :

ـ اللهم لا تجعل البواب لكازا فى الصدور ، دفاعا فى الظهور ، طراحا للقلانس . هب لنا رأفته وبشره وسهل لنا اذنه !

وبلغوا بابا كبيرا قد رش الطريق أمامه وكنس . فاعتدل أشعب ، وانتفخ فى ثيابه ، وشمخ بأنفه وسار متهاديا متعاليا متباطئا . ودخل غير ناظر الى البواب . فأفسح له البواب غير مجترىء على اعتراضه . وقد ظن أنه ذو مقام . وتبعه صبيانه وهم يشيرون اليه وينظرون الى البواب كأنهم يقولون له :

ـ نحن أصحابه وخلانه

واستجاب الله دعاء أشعب ، فيسر له الدخول . وما شعر أن قدميه فى الدار هو وأصحابه حتى أسرع فجلس وأجلسهم حوله ... ودعى بالطعام ، وحضرت الموائد، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس . ونظر أشعب الى مائدة شهية توضع أمامهم . فالتفت الى أصحابه وقال لهم :

ـ افتحوا أفواهكم ، وأقيموا أعناقكم،وأجيدوا اللف، واشرعوا الأكف ، ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين ، واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب !

وشمر عن ساعده . واذا تلميذه قد تعلق بكمه قائلا له :

ـ انصحنى !

فنظر اليه شزرا . فليس هذا وقت النصائح .والكلام الساعة يفوت عليه المنفعة ، وأية نصيحة يطلبها هذا أكثر من وجود الطعام ذاته بين يديه ؟ ولكنه عاد فتذكر هدايا صبيه وأطباقه فى أوقات العسر والمحنة فتلطف له وقال:

ـ انظر الى ولا تخالفنى على كل ما أقول !

وجاءوهم بقصعة عليها « سمذان » ، فقال أشعب لتلميذه :

ـ كل من الأحمر . فان فيه طعمين : طعم السكر وطعم الزعفران

ولم يدعه يأكل غيره ، ثم أتوهم « بالهريسة » فقال أشعب لصبيه :

ـ كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثا

فأكل التلميذ القدر الذى أمر به ، ولم يزد ، وجاءوهم « بالزيرباج » الأحمر

فقال أشعب :

ـ كل لقمة أو لقمتين

ثم أتوهم بالقلايا اليابسة فقال :

ـ لا تأكل الا لقمة أو لقمتين ولا تكثر ، وأولع بهذا الخبز اليابس الذى فى القلية !

ثم جاءوهم « بالبقلية » فقال له :

ـ كل لقمة أو لقمتين

ثم أتوهم بالشواء ، فقال له :

ـ لا تأكل منه شيئا وأبق نفسك ، فأنا فى كل يوم نصيب الشواء « بدانق » يقوم مقام هذا ويكفيك

ثم جاءوهم «بالفالوذج» ، وكان كثيرا شبيها بالصومعة، فقال لتلميذه :

ـ ايت من تحت حتى ينهـــار ، وكل وأكثر ، فانك لا ترى هذا فى كل يوم

ثم أحضروا لهم « اللوزينج » فقال له :

ـ أزوج وثلث ، فانْ مت فى هذا مت شهيدا !

ثم أتوهم بطبق عليـه دجاج مسمن مشوى ، فهوى عليه وأكل منه اثنتين أو ثلاثا وقال لصاحبه :

ـ كل ولا تقصر ، فان قيمة هـــذه ثلاثة دنانير ، فلا تأكل الا ما له قيمة !

ولبث أشعب وأصحابه على هذه الحال . وقد شغلهم أمر بطونهم عن مائدة عظيمة فى ناحيـــة من المكان قد وضعت أمام والى المدينة . ولم يفطن أشعب الى وجـود الوالى . ولكن الوالى فطن اليه . وعرفه ، ولـكنه كتم ذلك . ومال الى صاحب البيت وقال له :

ـ من صاحب القلنسوة الطويلة والطيلسان الاخضر ؟

فقال صاحب الدار :

ـ أصلح الله الأمير ، هـــذا رجل يقال له أشعب ، يشهد هذه الولائم دعى أو لم يدع

فقال الوالى :

ـ اذا أكل جئنى به

وفرغ النـاس من الطعام ، ورفعت الموائد . فأسرع صاحب البيت الى أشعب وأحضره الى الوالى . فلما صار بين يديه ، قال له الوالى :

ـ هل دعاك أحد الى هذه الوليمة ؟

فوقع أشعب فى الحيرة وقال :

ـ لا ، أصلحك الله !

فقال الوالى :

ـ ألا تعلم أن من جاء الى طعام لم يدع اليه دخـــل سارقا وأكل حراما ؟

فقال أشعب :

ـ لا والله ما أكلت الا حلالا

فنظر اليه الوالى دهشا :

ـ كيف ذلك ؟

فأجاب أشعب :

ـ أليس يقول صاحب الوليمة للخباز : « زد فى كل شىء » ؟ واذا أراد أن يطعم مائة قدر لمائة وعشرين وهو يقول : « قد يجيئنا من نريد ومن لا نريد » ؟! . فأنا ممن لا يريد

فابتسم الوالى وأعجبه الجواب وقال لأشعب :

ـ لقد اقتصصنا منك فيما مضى . ذاك حق المسلمين ولكن اليوم سلنى حاجتك ؟

فقال أشعب :

ـ أطال الله بقاء الأمير . حاجتى : تكتب لى منشورا لا يدخل على أحد فى هذه الصناعة الا ويدى عليه مطلقة

فضحك الوالى وهمس فىأذن صاحب الوليمة ثم أمر لأشعب بهدية ، وأمر صاحب الوليمة له أيضا بهدية .

فخرج أشعب بأطباق من كل لون . . .

ضيف ثقيل

لبث أشعب أياما يسير فى الاسواق فى غير شىء،ينتظر أن يوافيه أحد بخبر عرس أو وليمة وهو ينشد ويغنى :

كل يوم أدور فى عرصة الدار
أشم القتار شم الذباب
فاذا ما رأيت آثار عرس
أو دخان أو دعوة الأصحاب
لم أعرج دون التقحم لا أرهب
سبا أو لكزة البواب

وطال انتظاره . ووقف على رجل يعمل طبقا من الخيزران فقال له :

ـ أسألك بالله أن توسعه قليلا وأن تزيد فيه طوقا أو طوقين

فرفع الخيزرانى رأسه وقال له :

ـ وما غرضك من ذلك ؟ أتريد أن تشتريه ؟

فقال أشعب :

ـ لا ، ولكن ربما اشتراه شخص يهدى الى فيه شيئا ذات يوم

ثم تركه ومشى . فرأى رجلين يتهامسان ويتساران فى طرف السوق. فوقف على مقربة منهما ينظر اليهما . واذا تلميذه قد أقبل يقول له :

ـ لقد بحثت عنك فى مجلسك من السوق

فقال له أشعب على عجل : « أوليمة ؟ »

ـ لا . ولكنه الشوق الى حديثك

فأشاح أشعب بوجهه عنه . وعاد الى النظر فى وجه الرجلين المتهامسين ، حتى افترقا وذهبا. فقال له تلميذه:

ـ أتعرفهما ؟

فقال أشعب وهو ينصرف خائبا مع صاحبه :

ـ لا ، ولكنى ما رأيت اثنين يتساران الا ظننتهما يأمران لى بشىء

وأطرق أشعب لحظة ، ثم رفع رأسه وقال لصاحبه :

ـ كأنى بك لا تريد أن أزيدك فى النصح ؟

فنظر اليه تلميذه :

ـ لماذا ؟

فقال أشعب متخابثا :

ـ ذلك أنى أرى أطباقك قد انقطعت

فقال الرجل :

ـ ليس عندى الآن ما يهدى

فقال أشعب :

ـ أوليس عندك ما يؤكل ؟

فأجاب الرجل :

ـ اذا شئت فان دارى دارك . فأنت ليس منك حشمة

وقاد الرجل أشعب الى بيته وأنزله ضيفا عليه. ودخل على امرأته فأوصاها أن تعد لأشعب عشاء طيبا . وأكل أشعب ، ثم نظر فى الدار وقال :

ـ عجبا ! أرى أنك من استواء الحال على قدر تحمد الله عليه . فما شأنك وصناعة التطفيل ؟

فقال الرجل :

ـ لقد علقتها ولا طاقة لى بتركها

فقال أشعب :

ـ لو أضفتنى عندك أياما أنصحك ، لما تركتك الا وقد حذقتها حذقا عظيما !

▭

مكث أشعب فى دار الرجل أياما طويلة حتى ضجر وضجرت امرأته فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة :

ـ يبقى الى متى ؟

ـ كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟

فقالت المرأة بعد تفكر :

ـ أنا أجيئك بالخبر

فقال زوجها :

ـ كيف تستطيعين ؟

فقالت :

ـ الق بينى وبينك شرا ونتحاكم اليه وأجاذبه الحديث

ونهضا من ساعتهما فتشاجرا وتظاهرا بالغضب والخصومة ، وانطلقت المرأة الى أشعب تقول له :

ـ بالذى يبارك لك فى ذهابك غدا ، أينا أظلم ؟

فقال أشعب :

ـ والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهرا ، ما أعلم !

فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطمع فى طول المقام . فسقط فى أيديهما . ولم يعلما ما يصنعان . واغتاظ الرجل وفكر حتى اهتدى الى حيلة ، فقال لامرأته :

ـ اذا كان غدا فانى أقول له: «كم ذراعا تقفز؟» فأقفز أنا من العتبة الى باب الدار ، فاذا قفز هو فأغلقى الباب خلفه

وكان الغد ، فأحكما التدبير . وجعل الرجل يحتال فى الحديث مع أشعب حتى قال له :

ـ كيف قفزك ؟

فقال أشعب :

ـ جيد

فقام الرجل لساعته فوثب من داخل منزله الى خارج الدار أذرعا وقال لأشعب :

ـ ثب !

فنهض أشعب ووثب لا الى الخارج ، بل الى داخل الدار ذراعين . فوجم الرجل ، وقال لأشعب :

ـ عجبا ! أنا وثبت الى خارج الدار أذرعا ، وأنت وثبت الى داخل الباب ذراعين ؟!

فقال أشعب من فوره :

ـ ذراعين الى داخل خير من أربعة الى « برا » !

□

انفض الناس عن أشعب آخر الأمر ، وهرب منه تلاميذه ومريدوه فقد أيقنوا أنه قد انتهى الى الوقوع على منازلهم وتطبيق أصول التطفيل على موائدهم . فلبث أشعب أياما وحيدا حزينا لا يجد أنيسا ولا رفيقا، ولا يظفر بغداء ولا بعشاء . وخطر على باله صديقه بنان . ولم يدر أين اختفى . فخرج يبحث عنه حتى قنط من الاهتداء اليه ، فقعد في أول السوق يفكر فى أمر غده . واذا بنان قد أقبل يحمل قوسا ونشابا ويجر كلبا ، فما رآه أشعب حتى صاح به :

ـ أين كنت ؟ أخزاك الله !

فقال بنان :

ـ فى الصيد ، خيبك الله !

ـ الصيد !

ـ نعم ، صيد الطير والظباء . انه لعمل أجدى عليك من هـذا القعود تنتظر ما لا يجيء ، قم معى الى الرزق الحلال ، تستمتع بالصيد الشهى واللحم الطرى والهواء النقى . . .

فنظر أشعب الى ما فى يد صاحبه وقال :

ـ وأين لك بالقوس والنشاب ؟

ـ بعت خاتمى واشتريت كل ما ترى

ـ وأنا ماذا أصنع ؟

ـ اصنع مثل ما صنعت أنا

ـ ليس عندى شيء يباع

ـ أوليس عند امرأتك أو عيالك شيء ؟

فنهض أشعب لوقته ، وقال لبنان :

ـ انتظر ها هنا حتى أعود

ومشى الى بيته . وأشعب لا يذكر بيته الا يوم تضيق به الدنيا ، فصادف الكندى بالباب . . .

فما رآه الكندى حتى خف اليه وعانقه عناق المشتاق وقال له فى صوت العتاب :

ــ ألا عدتنى وقد كنت مريضا ؟

فقال أشعب :

ــ جعلت فداك ، متى مرضت ؟

فقال الكندى :

ــ بعد أربعين يوما من تاريخ اليوم الذى أهديتك فيه القميص

فقال أشعب وهو يحسب عدد الأيام فى نفسه :

ــ بعد أربعين يوما من تاريخ البعثة بالقميص ! أى منذ متى على التحقيق ؟ ان هذا التاريخ والله ولا التاريخ القبطى !

ثم ترك الحساب والتفت الى الكندى قائلا :

ــ الحمد لله على كل حال ، اذ رأيتك وقد رد الله اليك العافية

ورأى أشعب أن ينتفع بهذا الشوق والود . وحدثته نفسه أن يفضى الى الكندى بما جاء له . فجلس الى جواره وتنحنح وقال :

ـ لى اليك حاجة

فقال الكندى على عجل :

ـ ولى اليك أنا أيضا حاجة

فقال أشعب واجما :

ـ وما حاجتك ؟

فقال الكندى :

ـ لست أذكرها لك حتى تضمن لى قضاءها

فقال أشعب :

ـ نعم

فقال الكندى :

ـ حاجتى أن لا تسألنى هذه الحاجة

فقال أشعب :

ـ انك لا تدرى ما هى

ـ بلى . قد دريت

ـ فما هى ؟

فقال الكندى :

ـ هى حاجة ، وليس يكون الشىء حاجـــة الا وهى تخرج الى شىء من الكلفة

فقال أشعب متخابثا :

ـ هذا حق . ولكن . . . أنت خير من يتكلف لى . وقد جئتك أسألك أن تسلفنى وتؤخرنى . . .

فقال الكندى :

ـ هاتان حاجتان

فقال أشعب :

ـ نعم

فقال الكندى :

ـ واذا قضيت لك احداهما ؟

فقال أشعب من فوره :

ـ رضيت

فقال الكندى :

ـ أنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك

فيئس أشعب منه . ولم ير في الكلام معه غير انفاق الوقت في غير طائل . فقام يريد الذهاب

فتفكر الكندى لحظة ثم صاح به :

ـ والله لا تنصرف خائبا

فوقف أشعب دهشا . ومضى الكندى يقول :

ـ أما الدرهم فأنت تعلم أن ليس من عادتى اخراجه، فهو متى ألقى فيالكيس سكن على اسم الله فلا يهان ولا يذل ولا يزعج . أما اذا شئت فانى أهدى اليك قربة من عسل الرطب ، جاءتنى هدية من البصرة فبعها ان أردت واقض حاجتك !

فعجب أشعب ، ولم يصدق أذنه ، وأنكر ذلك من مذهب الكندى ، ولم يعرف جهة تدبيره . وهو يعلم أنه انما يجزع من الاعطاء وهو عدوه . وأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته ، وأنه لو أعطى أفاعى سجستان وثعابين مصر وحيات الأهواز لأخذها اذا كان اسم الأخذ واقعا عليها. فكيف يعطيه هذه الهدية التى جاءته ، بهذا الكرم؟ وجعل أشعب يحتال عليه ليعرف منه السبب . والكندى يتمنع ويتعسر . ثم باح بسره آخر الأمر قائلا :

ـ هـــذه الهدية التى جاءتنى ، خســائرها أضعاف مكاسبها ، وأخذها عندى من أسباب الأدبار والدمار

فقال له أشعب :

ـ لعل أول خسارة احتمال الشكر عليها برد نظيرها !

فقال الكندى :

ـ هذا لم يخطر لى قط على بال

فقال أشعب :

ـ هات اذن ما عندك من الأسباب

فقال الكندى :

ـ أول ذلك كراء الحمال الذى ينقلها الى البيت . ثم هى على خطر حتى تصير الى منزلى ، فاذا صــارت الى المنزل صارت سببا لطلب العصيدة والأرز . فان بعتهـا فـرارا من هـــذا ، صيرتمونى شهرة وشنعة ، وان أنا حبستها ذهبت فى العصائد وأشباه العصائد،وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جذب السمن غـيره ، وان أنا جعلت هــذا العسل نبيذا ، احتجت الى كراء القدور والى شراء الماء والى كراء من يوقد تحته والى التفرغ له . فان وليت ذلك الخادم اسود ثوبها وغرمنا ثمن الأشنان والصابون.

وازدادت فى الطمع على قدر الزيادة فى العمل .. فان تغاضينا وصنعنا النبيذ على رغم ذلك ، وعلم الصديق أو النديم أن عندى نبيذا دق الباب دق المدل ، فان حجبناه فبلاء ، وان أدخلناه فشقاء ، اذ لابد له من دريهم لحم ومن طسوج نقل وقيراط ريحان ومن أبزار للقدر وحطب للوقود ، وهذا كله غرم ، ان رضيت به فقد شاركت المسرفين وفارقت اخوانى من المصلحين ، فاذا صرت كذلك فقد ذهب كسبى من مال غيرى وصار غيرى يكتسب منى وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له ، فكيف اذا ابتليت بأن أعطى ولا آخذ ؟ أعوذ بالله من الخذلان بعد العصمة

□

أخذ أشعب القربة فأعطى نصفها عياله وحمل النصف الآخر الى السوق فباعه بما بلغ . وذهب الى بنان فأخبره الخبر فضحك ، وضحكا . ثم نهضا . وقال بنان لصاحبه:

ـ هلم نشترى لك قوسا ، فما معك يكفى لشرائها

فنظر أشعب الى النقود فى كفه وقال :

ـ أنا الآن فى أمان من الجوع ليلتين أو ثلاثا أو أربعا

فقال بنان :

ـ أتضيع رأس المال فى طعام ليلتين وتقعد بعد ذلك تتضور ؟

فقال أشعب :

ـ وهل تريد أن أضيع طعاما مضمونا فى يدى بطعام ما زال هائما فى الخلاء والسماء قد يصاد وقد لا يصاد ؟

واشتد الخلاف بينهما . واحتال بنان حتى أخذ النقود فى يده، فجذب صاحبه من كمه ومشى به قسرا الى البائع فاختار له قوسا وضعها فى يده .فأمسك بها أشعب ونظر فيها وهدأ لمنظرها وارتاحت نفسه لحملها

فقال للبائع : « كم ثمنها ؟ »

فقال الرجل : « أقل ثمنها دينار »

فصاح أشعب :

ـ دينار ! والله لو أنى اذا رميت بها طائرا فى السماء وقع مشويا بين رغيفين ، ما دفعت فيها دينارا أبدا !

فنظر البائع الى بنان نظرة المستجير . فتدخل بنان فى الأمر وقال لصاحبه همسا :

– ليس فى الثمن غلو . فلقد اشتريت قوسى هـــذه بأكثر من دينار !

وذكر بنان أن المال معه ، فلم ينتظر رأى صـــديقه وأسرع فأعطى البائع الثمن . وجذب ذراع أشـعب . وانصرف به . . .

لم تمض ســـاعة حتى كان الصديقان قد خرجا من المدينة وضربا فى الفلوات ، وأوغلا فى الخــلاء . . كل يحمل قوسه ونشابه وخلفهما الكلب . وعيونهما شائعة بين الارض والسماء ، يبحثان عن الصيد . ومضى النهار وهما فى مشى وبحث وكد وانتظـار ، واذا الكلب ينبح فجأة وينطلق فى أثر شيء مر أمامهمـــا كالبرق . فنظرا فاذا ظبى قد عن لهما . فوقفا.ووقف قلباهما من الفرح والاضطراب . وأمسك كل بقوسه . ورمى بنان الظبى فأخطأه . ورماه أشعب فأخطأه وأصاب الكلب . وهرب الصيد ، ومات الكلب . وجلس الصيادان ، وقد أضناهما التعب والجوع والفجيعة فى ثالثهما . . .

محتال ظریف

طال جلوس الصديقين واطراقهما ، واشتد جوعهما. فرفع أشعب رأسه وقال لصاحبه :

ـ قد جربنا صيد الظباء فلنعد الى صيد الموائد

ثم نهض ونظر الى الأفق فوجد نخلا كثيرا فقال :

ـ أرى قرية قريبة . هلم اليها

وأمسك بيد بنان . وسارا حتى بلغا القرية ، فاذا هما أمام دار قد مات صاحبها ، ونساء القرية يلطمن خدودهن، ويضربن صدورهن. ورجالها قد كوى الجزع أفئدتهم . والميت في صحن الدار قد سخن ماؤه ليغسل ، وخيطت أثوابه ليكفن . فعلم أشعب وبنان أن لا أكل ولا طعام في مثل هذه القرية الليلة . وخطر على بال أشعب خاطر ودفعه الجوع الى الحيلة ، فغمز صاحبه ، ثم تركه وتقدم الى الميت فجس عرقه وصاح في الناس :

ـ يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه ، فهو حي ، وانما عرته

بهتة . وأنا أسلمه اليكم مفتوح العينين بعد يومين !

فقال الناس :

ـ من أين لك علم ذلك يا هذا ؟

فقال أشعب :

ـ ان الرجل اذا مات ، برد استه ، وقد لمست هـذا الرجل فعلمت أنه حى

فتقدم النـاس الى الميت وجعلوا أيديهم فى استه ، ثم قال بعضهم لبعض :

ـ الأمر على ما ذكر الرجل ، فافعلوا كما قال . . .

وتركوا أشـعب يصنع ما يريد ، فقام الى الميت فنزع ثيـابه ثم ألبسه عمامة وعلق عليه تمائم ، وألعقه الزيت وأخلى له الدار ، وقال للناس :

ـ دعوه ولا تروعوه ! وان سمعتم له أنينا فلا تدخلوا عليه !

وخرج أشعب من دار الميت وقد شاع الخبر بأن الميت قد ردت اليه الحياة . فانهالت الهدايا عـلى أشعب وبنان من كل دار . حتى ورم كيسهما فضـة وذهبا ، وامتلأ رحلهما سمنا وجبنا وتمرا . وجهدا فى أن ينتهزا فرصة

للهرب فلم يجداها حتى حل الأجل المضروب . وأقبل الناس على أشعب بعد يومين يستنجزونه الوعد ، فقال لهم :

ـ هل سمعتم لهذا العليل أنينا أو رابتكم منه حركة ؟

فقالوا :

ـ لا

فقال لهم :

ـ ان لم يكن قد تحرك بعد أن فارقناه ، فلم يجيء بعد وقته . دعوه الى غد ، فاذا سمعتم صوته فعرفوني لأحتال في علاجه ، واصلاح ما فسد من مزاجه

فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غد !

فقال : « لا »

وجاء الصباح وانتشر الضوء ، فجاءه الرجال والنساء أفواجا وصاحوا به :

ـ نحب أن تشفى المريض ، وتدع القال والقيل

فقال أشعب :

ـ قوموا بنا اليه !



« فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الاكف »

وذهب معهم الى الميت ، فحدر عنه التمائم وقال لهم :

ـ أنيموه على وجهه !

فأناموه . فقال لهم :

ـ أقيموه على رجليه !

فأقاموه . فقال لهم :

ـ خلوا عن يديه !

ففعلوا . فسقط الميت رأسيا . ولم يدر أشعب ما يفعل ولا ما يقول ، ولم يزد على أن همس :

ـ انه حقيقة ميت !

فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الأكف . وتناوله القوم بالصفع والضرب ، وصار اذا رفعت عنه يد وقعت عليه أخرى . ثم تشاغل الناس بتجهيز الميت ، فانسل أشعب وبنان هاربين حتى أتيا قرية أخرى على شفيرواد ، قد جار عليها السيل . وأهلها مغتمون محزونون من خشية الغرق . فتقدم بنان وقد حدثته نفسه أن يبز صديقه فى الاحتيال ، فنظر اليه وابتسم ، ثم صاح فى أهل هذه القرية :

ـ يا قوم ! أنا أكفيكم شر هذا الماء . وأرد عن هذه

القرية ضرره . فأطيعونى !

فالتفت الناس الى بنان في رجاء وقالوا له فى الحال :

ـ وما أمرك ؟

فقال بنان :

ـ اذبحوا فى مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، وأتونى بجارية جميـلة عذراء ، وصلوا خلفى ركعتين لله . فان فعلتم ذلك انثنى الماء عنكم الى هـذه الصحراء . فان لم ينثن فدمى عليكم حلال !

فقالوا جميعا :

ـ نفعل

وقاموا من ساعتهم فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية، وقام بنان الى الركعتين يصليهما ، وهو يقول :

ـ يا قوم ! احفظوا أنفســكم لا يقع منكم سهو فى القيام أو فى الركوع ، فمتى سهونا أو هفونا ذهب عملنا باطلا . واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة !..

وقام بنان للركعة الأولى فأطال الوقوف حتى كادت تنخلع أضلاع الناس . وسجد سجدة ظنوا معها أنه قد

راح فى سبات . ولم يجرؤوا على رفع الرؤوس خشية أن يذهب جهدهم فى غير طائل . الى أن جاء وقت السجدة الثانية ، فأومأ بنان الى أشعب ، وانسلا ، فأخذا طريق الوادى ، وتركا أهل القرية ساجدين ، لا يدرى أحد ما صنع الدهر بهم

□

مشى أشعب يحمل الزاد والمال ، ومشى خلفه بنان مع الجارية الحسناء التى زوجوها منه وجعلوا يضربون فى الفلاة على غير هدى ، حتى أشرفوا على الهلاك . واذا هم يسمعون صهيل خيل ، فالتفتوا فوجدوا جماعة مسافرين الى البصرة ، فركبوا معهم . وقد اطمأنت قلوبهم وأمنوا على أنفسهم وعلى الغنيمة ، وما كادوا يوغلون فى بطن الصحراء . حتى عن لهم فارس ، جعل ينظر فى القوم ، الى أن وقع بصره على أشعب ، ورآه وحيدا منفردا بين الجماعة ، فنزل عن فرسه ، وتقدم اليه وقبل قدميه ، فنظر اليه أشعب ، فوجد وجها متهللا ، لفتى أخضر الشارب ، ملآن الساعد ، قوى العضل ، ظريف اللحظ لطيف الحديث

فقال له :

ـ مالك ؟

فقال الشاب :

ـ أنا عبد بعض الملوك هم بقتلى ، فهمت على وجهى الى حيث ترانى وأنا اليوم عبدك ومالى مالك

فقال أشعب :

ـ بشرى لك وبك !

ورأت الجماعة ذلك ، فغبطت أشعب على هـذا العبد وهنأته ، وجعل العبد ينظر فتقتلهم ألحاظه،وينطق فتفتنهم ألفاظه . ثم قال :

ـ يا سادة ! ان فى سفح هذا الجبل عينا ، وقد ركبتم فلاة طويلة ، فخذوا من هنالك الماء !

فلووا أعنة الجياد الى حيث أشار . وبلغوا الجبل وقد صهرت الهاجرة الابدان

فقال لهم :

ـ ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب ، على هـــذا الماء الزلال ؟

فقالوا : أنت وذاك

فنزل عن فرسه . وحل منطقته . فما استتر عنهم الا بغلالة تنم على بدنه ، فما شكوا أنه خاصم الولدان ففارق الجنة وهرب من رضوان . وعمد الى السروج فحطها والى الخيل فحش لها العشب . والى الأمكنة فكنسها ورشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأبصار عليه

فقال له أشعب :

ـ يا فتى ! ما ألطفك فى الخدمة وأحسنك فى الجملة! كيف أشكر الله على النعمة بك !

فقال :

ـ ما سترونه منى أكثر . أتعجبكم خفتى فى الخدمة وحسنى فى الجملة ؟ فكيف لو رأيتمونى فى الجد والفروسية ، أريكم من حذقى طرفا لتزدادوا بى شغفا؟؟

فقالوا جميعا :

ـ هات !

فعمد الى قوس أشعب فأخذها ورمى فى السماء سهما ، وأتبعه بآخر شق أجواز الفضاء وقال :

ـ سأريكم نوعا آخر !

ثم عمد الى كنانة بنان فحملها والى أكرم جواد من جياد القوم فامتطاه . ثم رمى أحد الجماعة بسهم أثبته فى صدره ، وعاجل آخر بسهم طيره من ظهره

فصاح أشعب :

ـ ويحك ! ما تصنع ؟

فقال الفتى ، وقد تغير صوته :

ـ أسكت يا لكع ! فليشد كل منكم يد رفيقه والا اختطفت روحه !

فلم يدرالقوم ما يصنعون! . فخيلهم مربوطة وسروجهم محطوطة وأسلحتهم بعيدة ، وهو راكب وهم على أقدامهم ، والقوس فى يده يرشق بها الظهور ، ورأت الجماعة الجد والعزم فى عين الفتى ، فشد بعضهم بعضا من الخوف وبقى أشعب وحده لا يجد من يشد يده . فقال له الفتى:

ـ اخرج بجلدك عن ثيابك ومالك ، لا أم لك !

ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منهم بعد الآخر ، وينزع ثيابه وكيس ماله وزاده ، حتى جردهم

مما يملكون . وعاد فاعتلى فرسه ولكزه لكزة انطلقت به انطلاق السهم فى كبد الفلاة

▭

جزع القوم فقد فقدوا الزاد ، وهم الآن لا يملكون الذهاب ولا الرجـوع . ووقعوا فى حيرة من أمرهم . فقال قائل ان خير السبل امتطاء خيلهم والامعان فى السير الى البصرة وهى من موضعهم هذا أقرب البلاد اليهم . فتزودوا من ماء العينووثبوا الى أفراسهم،وظلوا سائرين حتى لاحت لهم قرية فى طرف من أطـراف البصرة ، وكان الجوع قد أوشك أن يقتلهم . فما بلغوا أول دار من دور القرية حتى وثبوا من فوق أفراسهم فوجـدوا أنفسهم أمام رجل شيخ قد جلس على باب داره ، فنظر اليهم وقال :

ـ من أنتم ؟

فقالوا :

ـ أضياف لم يذوقوا شيئا يؤكل منذ ليال ثلاث

فابتسم الرجل وقال :

ـ اجلسوا !

وسكت طويلا . ثم نظر فى وجوههم مليا ، ثم تنهد، ثم ابتسم ، ثم تنحنح وقال لهم :

ـ ما رأيكم يا فتيـــان فى زبدة متوجة بعجوة خير الواحدة منها تملأ الفم ويوحل فيها الضرس ، عليها لبن قد حلب من نوق مسمنة ، أتشتهونها يا فتيان ؟

فقالوا جميعا :

ـ اى والله نشتهيها !. فقهقه الشيخ وقال :

ـ وعمكم أيضا يشتهيها

وصمت لحظة ، ثم قال :

ـ ما رأيكم يا فتيان فى عصيدة من دقيق قد نخل حتى صار كأنه سحالة الذهب ، وسمن عـربى بصرى أنضج حتى قال « بق بق بق » ، على حواشـــيها رقاق ملفوف بلحم قد نعم قطعه ، وفوه بالأبازير ، ومزج بالبصل ، وقلى فى الدهن . أفتشتهونها يا فتيان ؟

فاشرأب كل منهم الى وصفه. وتحلب ريقهم وتلمظوا وتمطقوا . وقالوا :

ـ اى والله نشتهيها ! فقهقه الشيخ وقال :

ـ وعمكم والله لا يبغضها . وسكت برهة ، ثم قال :

ـ ما رأيكم يا فتيان فى عنزة من نجد قد أكلت الشيح والقيصوم والهشيم ، حتى ورى مخها ، وكثر شحمها وطاب لحمها . تنضج لكم من غير امتحاش ، أو انهاء . وتقدم اليكم على خوان منضد بالبقل والخبز ، فتوضع بينكم تتساقط عرقا وتتسايل مرقا . أفتشتهونها يا فتيان؟

فقالوا :

ـ اى والله نشتهيها !

فقال الرجل :

ـ وعمكم والله يرقص لها !

ولم تطق الجماعة أكثر من ذلك فوثب بعضهم الى الرجل بالسيف قائلين :

ـ ما يكفى ما بنا من عض الجوع،حتى تسخر منا ؟ . .

وقاموا وانفضوا عنه وهم يسبونه ويدعون عليه . . . وأسرعوا فى الدخول الى مدينة البصرة حيث تفرقوا ، وذهب كل لشأنه . وأخبرت الجارية زوجها « بنان » أن لها أهلا فى البصرة ، يضيفونهما فانطلق معها بنان الى أهلها . وتركا أشعب وحده . . .

مع الخليفة

جلس أشعب على رأس الطريق وحيدا غريبا فى هذا البلد لا يعرف أحـدا فيه . ولا مال معه ولا زاد . وقد أضر به الجوع ، فجعل يتنهد ويقول لنفسه :

ـ لعن الله المال الحرام ! كلما جمعنـــاه ، ذهب عنـا سريعا . وعدنا شرا مما كنا !

وسمع خلفه جلبـــة ، فالتفت ، فرأى عشرة رجال مجتمعين . فصاح :

ـ انه الفرج

ونهض نشيطا ، وانسل فدخل وسطهم وهو يقول فى نفسه :

ـ ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة !

ولم يلبث أن جاء من يقود هؤلاء العشرة ويمضى بهم ، حتى انتهوا الى زورق قد أعد لهم . فأدخـلوا الزورق فقال أشعب لنفسه :

ـ هى نزهة

ودخل معهم. واذا هو يرى الرجال العشرة قد قيدوا بالحديد ، وقيد هو معهم . واذا هو يعلم أن هؤلاء عشرة من الزنادقة ذكروا بالاسم لأمير المؤمنين ، فأمر أن يحملوا اليه . فجمعوا له . ولم يلبث أشعب أن وجد الزورق قد وصل الى بغداد . واذا هو يساق ضمن العشرة ، حتى أدخلوا على أمير المؤمنين فجعل يدعو بأسمائهم رجلا رجلا ، فيأمر بضرب رقابهم ، حتى استوفى العدة وبقى أشعب . فدهش أمير المؤمنين وقال للموكلين :

ـ من هذا ؟

فقالوا :

ـ والله ما ندرى يا أمير المؤمنين ، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به

فالتفت أمير المؤمنين الى أشعب قائلا :

ـ ما قصتك ؟.. ويلك !

فصاح أشعب :

ـ يا أمير المؤمنين ! امرأتى طالق ان كنت أعرف من أحوال هؤلاء شيئا ولا مما يدينون الله به . انما أنا رجل طفيلى رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة

فقال أمير المؤمنين :

ـ ليس هذا مما ينجيك منى ، اضربوا عنقه !

فصاح أشعب :

ـ أصلحك الله ، ان كنت ولابد فاعلا فأمر السياف أن يضرب بطنى بالسيف فانه هو الذى ورطنى هـــذه الورطة !

فالتفت أمير المؤمنين الى رجاله وقال :

ـ يؤدب

فخرجوا بأشعب وهو ينتفض فى ثيابه رعبا . وكان وزير الخليفة قائما على رأسه ، فلما رأى ذلك لم يستطع كتمان ابتسامة ، وما تمالك أن قال :

ـ يا أمير المؤمنين هب لى ذنبه، وأحدثك حديثا عجيبا عن نفسى وقد عشت مثله حياة التطفيل ليلة !

فاشتاق أمير المؤمنين الى الحديث وقال :

ـ قل أيها الوزير !

قال الوزير :

ـ خرجت يا أمير المؤمنين من عندك ليلة ، فطفت في سكك بغداد ، فانتهيت الى موضع ، فشممت روائح أبازير قدور قد فاح طيبها ، فتاقت نفسي اليها، فوقفت على خياط فقلت :

ـ لمن هذه الدار ؟

قال :

ـ لرجل من التجار

قلت :

ـ ما اسمه ؟

قال :

ـ فلان بن فلان

فنظرت الى الدار فاذا بشباك فيها مطل ، فرأيت كفا قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم. فشغلني يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور. وبقيت باهتا ساعة . ثم أدركني ذهني فقلت للخياط :

ـ أهو ممن يشرب ؟

قال :

ـ نعم وأحسب أن عنده الليلة دعوة ، وليس ينادمه الا تجار عملة مستورون

فبينما أنا كذلك اذ أقبل رجـــلان نبيلان راكبان من رأس الدرب فقال الخياط :

ـ هؤلاء منادموه

فقلت :

ـ ما أسماهما ؟ وما كناهما ؟

قال :

ـ فلان وفلان

فحركت دابتي وداخلتهما . وقلت لهما :

ـ جعلت فداكما ، قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله

وسـايرتهما حتى بلغنا الباب . فأدخلانى وقدمانى . فدخلنـا . فلما رآنى صاحب المنزل لم يشك أنى منهما بسبيل ، أو قادم قدمت عليهما من موضـع . فرحب بى وأجلسنى فى أفضل مكان . وجىء بالمائدة وعليها خبز

نظيف ، وأتينا بتلك الألوان ، فكان طعمهـا أطيب من ريحها . فقلت فى نفسى :

ـ هذه الألوان قد أكلتها ، وبقى الكف والمعصم كيف أصل الى صاحبتهما ؟

ثم رفع الطعام ، وجاؤونا بوضوء فتوضأنا ، وصرنا الى بيت المنادمة فاذا أجمل بيت يا أمير المؤمنين . وجعـل صاحب المنزل يلطف بى ويميل على بالحديث ، والندماء لا يشكون أن ذلك منه على معرفة متقـدمة . حتى اذا شربنا أقداحا ، خرجت علينـا جارية كأنها بان ، تتثنى كالخيزران . فأقبلت فسـلمت غير خجلة ، وثنيت لها وسادة فجلست ، وأتى بالعود فوضـع فى حجرها ، فجسته فاستبنت فى جسها حذقها . ثم اندفعت تغنى :

توهمها طرفى فأصـبح خـدها
وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
وصـافحها كفى فآلم كفهـا
فمن مس كفى فى أناملهـا عقر

فطربت يا أمير المؤمنين لحسن غنائها. ثم اندفعت تغنى:

أشرت اليها : هـل عرفت مودتى ؟

فردت بطرف العين : انى على العهد

فحدت عن الاظهـار عمدا لسرها

وحادت عن الاظهار أيضا على عمد

فصحت : « يا سلام ! » ... وجاءنى من الطرب مالا أملك نفسى . ثم اندفعت فغنت الثالث :

أليس عجيبـا أن بيتا يضـمنى

واياك لا نخـلـو ولا نتكلم ؟

سوى أعين تشكو الهوى بجفونها

وتقطيع أنفاس على النـار تضرم

اشـارة أفواه وغمز حـواجب

وتكسير أجفـان وكف يسـلم

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء ، وأصابتها لمعنى الشعر ، وأنهـا لم تخرج عن الفن الذى ابتدأت به ، فقلت : «بقى عليك يا جارية ...» ، فضربت بعودها الأرض وقالت : « متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء ! » فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم تغيروا لى . فقلت : « أما عندكم عود غير هذا ؟ » . قالوا :

«بلى» ، فأحضروا لى عودا فأصلحت من شأنه ، ثم غنيت:

ما للمنازل لا يجبن حزينا
أصممن أم قدم المدى فبلينا
راحوا العشية روحة منكورة
ان متن متنا أو حيين حيينا

فما أتممته حتى قامت الجارية فأكبت على رجلى تقبلها وقالت :

ـ معذرة اليك ، فوالله ما سمعت أحدا يغنى هذا الصوت غناءك !

وقام مولاها وأهل المجلس ففعلوا فعلها،وطرب القوم والله واستحثوا الشراب ، فشربوا بالكاسات والطاسات ثم اندفعت أغنى :

أبى الله أن تمسى ولا تذكرينني
وقد سفحت عيناى من ذكرك الدما
فردى مصاب القلب أنت قتلته
ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما
الى الله أشكو بخلها وسماحتى
لها عسل منى وتبذل علقما

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم. فأمسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا . ثم اندفعت أغنى الثالث :

هـــذا محبك مطوى عـلى كمده
حرى مدامعه تجرى على جســده
له يد تسأل الرحمن راحتــــه
مما جنى ويد أخـــرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح :

ـ هذا هو الغناء والله يا سيدى ، لا ما كنا فيه !

وسكر القوم . وكان صـاحب المنزل حسن الشرب صحيح العقل ، فأمر غلمانه أن يخرجـوهم ويحفظوهم الى منازلهم وخلوت معه

فلما شربنا أقداحا قال :

ـ يا هـــذا ، ذهب ما مضى من أيامى ضياعا اذ كنت لا أعرفك ، فمن أنت يا مولاى ؟

ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر . فقام وقبل رأسى وقال :

ـ وأنا أعجب يا ســيدى أن يكون هذا الأدب الا لمثلك ، وأنى لى أن أجالس رجال الخلفاء ولا أشعر !

ثم سألنى عن قصتى فأخبرته ، حتى بلغت خبر الكف والمعصم ..

فقال للجارية :

ـ قومى فقولى لفلانة تنزل

ثم لم يزل ينزل لى جواريه واحدة بعد أخرى،وأنظر الى كفها ومعصمها وأقول :

ـ ليست هى

حتى قال : والله ما بقى غير زوجتى وأختى ، ووالله لأنزلنهما اليك

فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت :

ـ جعلت فداك ، ابدأ بالأخت قبل الزوجة ، فعساها هى !

فبرزت . فلما رأيت كفها ومعصمها

قلت : هى هذه !

فأمر غلمانه فمضوا الى عشرة مشايخ من جلة جيرانه، فأقبلوا بهم ، وأمر ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم فقال للمشايخ :

ـ هذه أختي فلانة أشهدكم أني قد زوجتها من سيدي الوزير ، وأمهرتها عنه عشرين ألفا

ثم دفع اليها البدرة . وفرق الأخرى على المشايخ وقال لهم : « انصرفوا »

ثم قال لي : « يا سيدي ، أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك ؟ »

فاحتشمني ما رأيت من كرمه ، فقلت :

ـ بل أحملها الى منزلي

قال : « ما شئت »

فحملتها الى منزلي . فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز ما ضاق عنه بعض بيوتنا !.. »

□

عجب أمير المؤمنين لحديث وزيره، ولتطفيله الظريف تلك الليلة ، فأمر باحضار أشعب الطفيلي . فجاء أشعب يتعثر خوفا . فابتدره الخليفة قائلا :

ـ هل لك في « ثريدة » مغمورة بالزبد ، مشققة باللحم ، تفوح بروائح الأبازير ؟

فقال أشعب :

ـ وأضرب كم ؟

فكتم أمير المؤمنين ضحكة وقال :

ـ بل تأكلها من غير ضرب

فنظر أشعب الى الخليفة مليا ثم قال :

ـ هذا ما لا يكون ، ولكن كم الضرب فأتقـــدم على بصيرة ؟

فضحك الخليفة ، وضحك الوزير . ثم التفتالخليفة الى أشعب قائلا :

ـ قد علمت أنك ذو بصر بالطعـــام . فما تقول فى « اللوزينج » و « الفالوذج » ... أيهما أطيب ؟

فأجاب أشعب :

ـ يا أمير المؤمنين ، لا أقضى على غائب

فأمر الخليفة ، فأحضرت مائدة عليها هذان اللونان . وقال لأشعب :

ـ اقض بينهما الآن

فانقض أشعب من فرط جوعه على الخوان . وجعل

يأكل من « الفالوذج » ساعة ، ومن « اللوزينج » ساعة وهو ساكت لا ينبس بحرف . وقد انتفخ فمه بالطعام وازدحم حلقه من الازدراد . فقال الخليفة :

ـ قل . . . أيهما أطيب ؟

وقال الوزير :

ـ اقض لأحدهما

فتردد أشعب وحار بين اللونين. ثم عاد فأخذ من هذا لقمة ومن ذاك لقمة . وقال :

ـ يا أمير المؤمنين ! كلما أردت أن أقضى لأحدهما أدلى الآخر بحجته

فضحك الخليفة واستظرفه وقال له :

ـ تشه على . . أى لون تريد ؟

فاطمأن أشعب وقال مترنما :

ألا ليت خبزا قد تسربل رائبا
وخيلا من البرنى فرسانها الزبد

فأمر الخليفة أن يحضر له ما اشتهى . وجعل ينظر اليه وهو يأكل حتى فرغ . فقال له :

ـ شبعت ؟

فقال أشعب :

ـ نعم أطال الله بقاء أمير المؤمنين

وتأمل الخليفة ثياب أشعب فلم ترقه . وقال له :

ـ لست أرى عليك كسوة رائعة !

فلم يجد أشعب ما يقول . ثم تفكر وقال :

ـ كانت على أصلحك الله ثياب نظيفة . غير أنى قبل أن يأتوا بى الى أمير المؤمنين كانت قد أخذتنى اغفاءة ، فرأيت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل

فقال الخليفة دهشا :

ـ وكيف ذلك ؟

فقال أشعب :

ـ رأيت أنى أحمل بدرة من ذهب ، فمن شدة ثقلها على كنت أسلح فى ثيابى . ثم انتبهت . فاذا أنا بالسلح ... ولا بدرة

فضحك أمير المؤمنين حتى استند الى الوسادة وقال :

– نحقق لك النصف الآخر . ولكن أخبرنى قبل ذلك . ممن أنت ؟

فقال أشعب :

– من المدينة يا أمير المؤمنين

فقال الخليفة :

– وكيف وجدوك بالبصرة ؟

وتذكر أشعب كل ما وقع . فرأى الخير فى أن يوجز فقال :

– خرجت من المدينة للصيد فضللت ، واذا أنا فى البصرة

فنظر أمير المؤمنين اليه مليا وقال له :

– وهل صدت شيئا ؟

فتنحنح أشعب وقال كالمخاطب لنفسه :

– صدت الكلب

فضحك الخليفة . وأعجبه حديثه . ولبث يصغى اليه والى نوادره ساعات طويلة : ثم قال له آخر الأمر :

– سل حاجتك !

فقال أشعب :

ـ كلب صيد أصطاد به

فقال الخليفة متعجبا ضاحكا :

ـ قد أمرنا لك بكلب تصطاد به

فقال أشعب :

ـ وغلام يقود الكلب

فقال أمير المؤمنين :

ـ قد أمرنا لك بغلام

فقال أشعب :

ـ وخادم تطبخ لنا الصيد

فقال الخليفة :

ـ وأمرنا لك بخادم

فقال أشعب :

ـ ودار نأوى اليها

فقال الخليفة :

ـ أمرنا لك بدار

فقال أشعب :

ـ بقى الآن المعاش

فقال أمير المؤمنين :

ـ قد أقطعناك ألف «جريب» عامرة ، وألف «جريب» غامرة

فقال أشعب :

ـ وما الغامرة ؟

فقال الخليفة :

ـ التى لا تعمر

فقال أشعب من فوره :

ـ فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفا من صحارى نجد وفيافى بنى أسد !

فضحك أمير المؤمنين وقال :

ـ نجعلها لك اذن كلها عامرة

فقال أشعب :

ـ لم يبق الآن الا شيئان

فقال الخليفة :

ـ هات

فقال أشعب :

ـ أن تقيم معى فى هذه الضياع جارية حسنة الصوت كنت أعلمها الغناء بالمدينة . يقال لها « رشأ » !

ـ وكيف هى ؟

فتنهد أشعب وقال مترنما :

كأنهـا أفرغت فى قشر لؤلؤة
فى كل جارحـة منها لها قمر

فقال الخليفة :

ـ قد زوجنـاك منها وأمهرناها عنك عشرين ألف درهم ! تلك واحدة . فما الأخرى ؟

فقال أشعب :

ـ الاخرى أن تسـمح لى يا أمير المؤمنين أن أعتزل صناعة التطفيل ، وأن أستخلف عليها خليفة من بعدى ، وأن أكتب بذلك عهدا الى صديق لى يدعى بنان ليكون هو منذ اليوم امام الطفيليين وعريفهم

فضحك الخليفة وقال :

ـ وذلك أيضا لك

ثم دعى بالكاتب والقرطاس . وقال لاشعب يملى عهده

فقال أشعب للكاتب :

ـ اكتب :

« هذا ما عهد أشعب الى بنان حين استخلفه على احياء سنته واستنابه فى حفظ رسـومه من التطفيل على أهل المدينة ، وما يتصـــل بها من أكنافها ، ويجرى معها من سوادها وأطرافها ، وذلك لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجـودة الهضم ، ولما رآه أهلا له من شدة مكانه فى هذه الرفاهية المهملة التى فطن لها ، والرفاعية المطرحة التى اهتدى اليها . والنعم العائدة على لابسيها بملاذ الطعوم ، ومناعم الجسوم ، متوردا على من اتسعت موارد ماله ، وتفرغت شعب حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، وأظفره بدائع الطيبات ، آخذا من كل ذلك بنصيب الشريك المناصف وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض . وهذا عهدى اليه . وحجتى عليه . فليكن بأوامره مؤتمرا ولرسومه متبعا ان شاء الله ، وبالله التوفيق وعليـــه التعويل ، وهو حســـبنا جميعا ونعم الوكيل . . . »

وسكت أشـعب ونظر فاذا الخليفة ووزيره يتقطعان

ضحكا ، وهدأ الخليفة فقال لأشعب :

ــ هل بقيت لك حاجة لم تقض ؟

فقال أشعب :

ــ نعم ، حاجة أخيرة

فقال الخليفة :

ــ قل

فقال أشعب :

ــ يأذن لى أمير المؤمنين فى تقبيل يده

فقال الخليفة :

ــ أما هذه فدعها

فقال أشعب :

ــ ما تمنعنى شيئا أحب الى منها !

وأسرع الى يد أمير المؤمنين فاختطفها اختطاف الجائع للرغيف ، ورفعها الى فمه ، وأشبعها لثما وتقبيلا ..

فهرس

صفحة

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ، وبثمن زهيد لايرهق أحدا من عشاق القراءة والاطلاع .. وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

العدد	الكتاب	المؤلف	الموضوع
١	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد	تحليل لشخصية النبى محمد صلى الله عليه وسلم
٢	ماجلان : قاهر البحار	ستيفان زفايج	قصة طواف ماجلان حول الارض
٣	هرون الرشيد	أحمد أمين بك	الحياة العامة والخاصة للخليفة هرون الرشيد
٤	أبو الشهداء	عباس محمود العقاد	قصة استشهاد الامام الحسين رضى الله عنه
٥	جنكيز خان	ف . يان	الحياة الحربية والسياسية لجنكيز خان
٦	قلب النسر	أوكتاف أوبرى	قصة غرام نابليون وجوزفين

الموضوع	المؤلف	الكتاب	العدد
قصة حياة أول زعيم شعبى لمصر الحديثة	محمد فريد أبو حديد بك	السيد عمر مكرم	٧
قصة أشهر زعيم سياسى روحى فى الشرق	لويس فيشر	غاندى : الثائر القديس	٨
قصة الثورة فى حياة الزعيم الخالدسعد زغلول	عباس محمود العقاد	زعيم الثورة : سعد زغلول	٩
قصة زينب بنت الزهراء ودورها الخالد فى معارك كربلاء	الدكتورة بنت الشاطىء	بطلة كربلاء : زينب بنت الزهراء	١٠

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من دار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام بناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، واكشاك الصحف


Princeton University Library
32101 060747068